تجاربهم في القراءة

لمجموعة

من الباحثين والأكاديميين والمفكرين

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
تجاربهم في القراءة. / مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. - الرياض، ١٤٣٣هـ
٢٨٩ ص؛ ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٨ـ ٩٤ـ ٨٠١٩ ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨
١ـ المقالات العربية ٢ـ القراءة أ. العنوان
ديوي ٠٨١ ١٢٤٦/ ١٤٣٣

رقم الإيداع: ١٢٤٦/ ١٤٣٣
ردمك: ٨ـ ٩٤ـ ٨٠١٩ ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م
ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٠٠٩٦٦١٤٩١١٣٠٠ - فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٩١١٩٤٩

www.kapl.org.sa



المحتويات

الموضوع	صفحة
تصدير المكتبة:	٧
البحث الأول:	
التعايش مع كائنات من ورق: . . . . عبدالله بن محمد الغذامي	٩
البحث الثاني:	
مراحل القراءة . . . . سعد بن عبدالرحمن البازعي	٣٥
البحث الثالث:	
قوانين البناء المعرفي . . . . خالص مجيب جلبي	٥٥
البحث الرابع:	
أداة القراءة العقل . . . . نجيب بن عبدالرحمن الزامل	١٢٣
البحث الخامس:	
القراءة قضية . . . . عبدالفتاح أبو مدين	١٤٧
البحث السادس:	
القراءة... وفك الرموز . . . . سلمان بن فهد العودة	١٦١
البحث السابع:	
القراءة نزهة في عقل الكون . . . . أميمة بنت عبدالله الخميس	٢٠٧
البحث الثامن:	
القراءة دون طقوس . . . . حمد بن عبدالله القاضي	٢٣١

الموضوع	صفحة
البحث التاسع:	
مصادر الوعي بالقراءة .... **عثمان بن محمود الصيني**	٢٤٩
البحث العاشر:	
القراءة وسيطرة اللغة .... **حسن بن فهد الهويمل**	٢٧٣

تصدير



والله من وراء القصد . .

التعايش مع كائنات من ورق..![1]

أ. د. عبدالله بن محمد الغذامي

أستاذ النقد والنظرية بجامعة الملك سعود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

للقراءة سيرتان: سيرة يومية تفصيلية؛ وسيرة ذهنية. سأؤجّل السيرة الذهنية إلى نهاية الحديث، وأبدأ بالسيرة اليومية.

القراءة.. سيرة يومية:

أتذكّر القراءة كسيرة يومية؛ لأنني مدين لأناس صنعوني من حيث القراءة، ومن حيث أن أكون إنسانًا قارئًا، أول هؤلاء، كان والدي، رحمه الله، والدي كان ينتمي إلى فكرة تربوية يعتقد فيها أن الشارع مُضر بالولد، وخروج الولد الصغير إلى الشارع يفسده ويفسد أخلاقه ويجعله غير مُربىً تربية كافية؛ فحرص على إبقائي في البيت، لكن البقاء في البيت يتطلب أسبابًا كافية لذلك؛ فكان يدفع بي نحو القراءة، وإذا أحسَّ بالوهن أو عدم الرغبة، كان يوهمني أنه يريد أن يستمع؛ فيحضر لي كتابًا ويقول: اقرأ عليّ يا عبد الله! إيهامًا منه أنه هو الذي يريد أن يسمع المقروء! كانت إذن محاولة لتدريبي وجعلي أتعلم شيئاً من القراءة. هذا كان بالنسبة لي في ذلك الوقت بمثابة الاضطهاد؛ والحَجر والتعذيب؛ لأنني محروم أن أكون مثل سائر الأطفال، بأن أخرج إلى الشارع للعب في بيئة ريفية، مثل: بيئة عنيزة، كل الناس في الشارع، سيما الأطفال منهم إلا أنا!

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء الثلاثاء ٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ الموافق ٢٧مايو ٢٠٠٨م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

هذا التصرُّف بالطبع، انعكس على علاقاتي الاجتماعية، وأثّر بالسلب فيها، حيث صارت قليلة جدًا، وتأثّرت حياتي؛ حتى صارت خيالية، صرت أعيش مع الأموات، أكثر من الأحياء! . . الفرزدق، الجاحظ، المتنبي، أناس ليسوا في الكون ولكن في الخيال، أعيش مع الكائنات الورقية، الكائنات الخيالية، ويعمر خيالي عبرها، وكان حس الاضطهاد قويًا، لكن بالتدرُّج بدأ الأمر يتغير شيئًا فشيئًا؛ لأنني بدأت أشعر بمردود فعالية القراءة على المستوى الشخصي، والمستوى الأدائي، ثم صادف أن لي زميلاً، لم يكن صديقًا حينها، اسمه: محمد السليم (رحمه الله)، وكان يقرأ دون أن أعرف أنه يمارس القراءة، فبينما كنت أسير في الشارع، يومًا من الأيام، متأبطًا كتابًا، فنظر إليّ نظرةً، وسألني:

- أتقرأ كتبًا؟!

- أجبته: نعم!

في تلك اللحظة بدأت الصداقة بيننا، وجمعنا الكتاب على هذه الصداقة.

صديقي محمد السليم، كان نهمًا وأدوم مني على القراءة؛ حيث كان يذهب إلى المكتبة العامة في عنيزة ويستعير أمهات الكتب، مثل: (الأغاني؛ ونفح الطيب؛ والعقد الفريد، . .)، فصرتُ أذهب مثله وأستعير الكتب مثله!

بدأت في محاولة ليست بريئة أنظر إلى اليوم الذي استعار فيه الكتاب، واليوم الذي أعاد فيه الكتاب (المجلد)، وأقارن بين قراءته وقراءتي للكتاب، كم يستغرق عنده؟ وكم استغرق عندي؟!

هذه المحاولة، حفَّزتني على مواصلة القراءة والتعوّد على السرعة. . التي يمكن لي استهلاك كميات كبيرة من الصفحات! وظل النشاط عندي وعند محمد السليم مبنيًا على الكتب المستعارة.

قرأنا الفرزدق، والمعلقات، والعقد الفريد إلى آخره، والمتنبي، والشروحات، وفي أحيان كثيرة كنا نقرأ أشياء لا نفهمها، فيها صعوبة لغوية، صعوبة بعض

الحوارات في نقاشات الشرّاح في شعر المتنبي، عن خلاف لغوي أو خلاف عَروضي، أو خلاف في الدلالات، أو خلاف أحيانًا يمس مسائل عقدية، أحيانًا لا نفهمها، لكننا مع ذلك نلزم أنفسنا بقراءتها، واستمر الأمر على هذا الحال، إضافة إلى دراستنا معًا في المعهد العلمي، وحضورنا معًا إلى حلقات الشيخ محمد بن عثيمين في الجامع الكبير، والتي ظلت تُثري جوانب المعرفة في علوم الدين، وعلوم اللغة، جنبًا إلى جنب مع جانب القراءة.

كنا نشعر أن القراءة هي الأقرب إلى نفوسنا، وتعطينا حسًا بالتمرد على المؤسسة التعليمية. . على الأساتذة. . . ، على طريقة التدريس. . . ، على المقررات الصغيرة، والكتيبات الصغيرة كمقررات، فيشعرنا بشيء من التمرد ضد المؤسسة؛ أعطانا هذا التمرد معنىً كبيرًا؛ أننا معًا مختلفان عن سائر مَنْ في المعهد: طلابًا وأساتذة. كان ذلك يعطي قيمة أخرى ومختلفة.

استمرت الأمور على هذا الشكل إلى أن بدأت الأمور تتأزم؛ بسبب نقص المادة، وقلة ذات اليد، لكنا ابتكرنا من خياراتنا وسائل أتاحت لنا مصادر معرفية أخرى، تمثّلت في أربعة مصادر:

- الأول: الاستعارة، وقد أخذنا بنظام الاستعارة من مكتبة المعهد العلمي، أو مكتبة الجامع، وهي مكتبة جامعة، تراثية، وكتب دين، وبعض المخطوطات، أو مكتبة في عنيزة تسمى في ذلك الحين المكتبة العلمية، كان قد أسسها الشيخ عبدالله بن سليمان، (رحمه الله)، فكنا نستفيد من هذه المكتبة باستعارة الكتب وقراءتها، هذا واحد من المصادر.

- الثاني: الإهداء، حيث كان في المعهد العلمي نشاط ثقافي كبير نمارسه، أيضًا كان لدرجات التفوق والنجاح جوائز من الكتب، إذ كنت الأول في الفصل، فكانوا يهدوننا كتبًا سنويًا، على الأكثر نشاطًا، وعلى التفوق في الفصل، فصارت تأتينا كتب: جاءني إهداء كتاب: المتنبي بشرح العكبري؛ وجاءني كتاب (ألوان) لطه

حسين؛ وجاءني كتاب: (شعراء نجد المعاصرون)، لعبدالله بن إدريس، وهكذا. لابد أن أتذكر شيخنا وأستاذنا الجليل، الذي له فضل علينا معالي الشيخ سليمان الفالح[1]، الذي فجَّر الحيوية في نفوسنا؛ لأننا كنا نقرأ وكنا خزّانات معلومات، خزانات كتب دون أن نستثمر هذا الوقود الذي فينا. سليمان الفالح، جزاه الله خيرًا، فجّر هذا الوقود الذي فينا ففتح مجالاً لنا؛ لكي نكتب مسرحيات ونمثلها، ونكتب مقالات وننشرها.

في مرة من المرات صار في معهد عنيزة العلمي ما يقرب من سبع عشرة جريدة حائطية على الجدران نحرّرها نحن كطلاب، دون رقابة، ونحرص أن نقول الجريدة الفلانية اسمها الطليعة، مثلاً يحررها فلان وفلان وضع في قوسين (دون إشراف) لكي نحس أنه لا رقيب علينا؛ ولهذا فمصدر إهداء الكتب كان من المصادر المهمة.

- الثالث: الكتاب المستعمل، الكتاب المستعمل أدى دورًا كبيرًا جدًا في حياتنا، وحدثت لي قصة، أعُدُّها من أهم قصص حياتي، وهي أن والدي، رحمه الله، كان قد اشترى لي ذات مرة دراجة من الرياض - ونحن في عنيزة - بمئتي ريال، وحُملت الدرَّاجة من الرياض على سيارة، وأبلغنا بوصول السيارة ومعهم الدراجة؛ فذهَبتُ وزملائي لاستقبال الدراجة باحتفال كبير، وأخذناها، ومشينا بها من وسط السوق التجاري؛ كي يراها كل إنسان! وصرت أستخدم هذه الدراجة في جميع مشاويري. وبعد فترة قصيرة من امتلاكها، علمت أن الشاعر صالح أحمد العثيمين[2]، أحد

(١) معالي الشيخ سليمان الفالح، المستشار الشرعي، لسمو النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، ووزير الداخلية. ولد في مدينة الزلفي في النصف الأخير من القرن الماضي وعاش جل أعوام بداية شبابه الأول بعيداً عن أسرته، وبالتحديد في مدينة الرياض، بغرض طلب العلم، وكان من أوائل الطلبة الذي التحقوا بالمعهد العلمي. وبعد تخرجه في كلية الشريعة، عاد إلى عائلته والتحق بالسلك التعليمي في مدينته ثم انتقل عمله إلى عنيزة وقضى فيها بعض الوقت ثم اتجه للرياض.

(٢) هو الأديب صالح الأحمد العبدالرحمن العثيمين، ولد في عنيزة عام١٣٦٠هـ على وجه التقريب درس الابتدائية في مدرسة العزيزية بعنيزة، كما كانت دراسته المتوسطة فيها وتخرج منها سنة ١٣٨١هـ، عمل في مجال التربية والتعليم خمسة وعشرين عاماً، منها ثلاث سنوات في التفتيش الفني في الرياض. تقاعد مبكرا عام ١٣٩٦هـ وعمل في عدد من المجالات التجارية. صدر له ديوانان: (شعاع الأمل)؛ (الشواطىء العطشى). له مشاركات شعرية وأدبية في الصحف والمجلات السعودية.

شعراء عنيزة، وقد يعرفه بعضكم، قد انتقل من عنيزة لسبب لا أعرفه! ولا أدري إلى أين ذهب؟! وقرر بيع مكتبته، وباعها كاملة إلى مكتبة اليحيى التجارية بعنيزة، وحينئذ رأيت كنزاً من الكتب أمامي، ولكن ليس لدي نقود لكي أشتريها، فقررت بيع دراجتي بمبلغ ١٨٠ ريالاً، أي بخسارة ٢٠ ريالاً، وأنفقت المبلغ كاملاً على الكتب التي كانت لصالح بن عثيمين، واشتريت الكتب كاملة عن طريق مكتبة اليحيى، وشكَّلتُ مكتبتي الخاصة في البيت. وصرت أشعر بالسعادة من هذه الكتب التي تملأ بيتي، وظل هذا الإحساس والعلاقة مع الكتاب المستعمل إلى أن ذهبت إلى بريطانيا. هذا كان في السبعينيات، ما بين ١٩٧٠ – ١٩٧٨م. وهناك بحثت أول ما بحثت عن الكتاب المستعمل؛ لأن المرتب صغير جداً، والمكافأة بالكاد لا تكفي، تكاليف الحياة، والكتب باهظة الأثمان. فاكتشفت أنا وصديقي الدكتور محمد الهدلق[1] عن بعض المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، وصرنا نذهب إلى الكتب المستعملة.

وأذكر طرفة صارت مع الدكتور محمد، ذهبنا ذات مرة وقت الغداء من الثانية عشرة إلى الواحدة في بريطانيا، وهذا وقت الغداء عادة واستراحة، لكن كنا نذهب إلى المكتبات لنستفيد من هذه الساعة، كنا اشترينا مجموعة كتب والكتاب الواحد بخمسة بنسات، أي ما يعادل أقل من ريال في حسابنا، ونمشي ومعنا الكتب،

---

(١) أستاذ النقد الأدبي والبلاغة في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة الملك سعود. تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الملك سعود من ٢٢/١٠/ ١٤١٨ إلى ٢٩/ ٦/١٤٢٢هـ. له أكثر من ٣٠ مؤلفًا بحثيًا ونقديًا. . أتذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها، وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنجليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتنا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب)، وراح محمد يشتري منها بنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها، ولن أنسى الرجل الإنجليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في أدنبرة، إنها بعيدة بعيدة، وهذه هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قولي عن الهدلق وأدنبرة، وهكذا هو الهدلق رجل تتذكره الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات. انظر: عبدالله محمد الغذّامي، شيمته الكتب محمد الهدلق: همزة الوصل في قصصنا كلها، مقال بملف مجلة الجزيرة الثقافية، الصادرة يوم الخميس ١١ جمادى الآخر ١٤٣٠هـ، احتفاءً بالصديق الدكتور محمد الهدلق.

فمحمد الهدلق استعرض واحداً من الكتب، وقالي لي : انظر هذا بخمسة بنسات، وكوب القهوة بخمسة بنسات، لكن لو شربت قهوة أين ستذهب؟ طبعًا بدأ يتكلم أين مصير القهوة النهائي وهو الصرف الصحي! ولكن الكتاب باق عندك وفي عقلك، فكان يحاول إقناع نفسه بأن ما فعله صحيح، ويقنعني أيضًا أننا نفعل شيئًا صوابًا، بدلاً من أن نشتري قهوة وشايًا، نشتري كتبًا. وتشكلت مكتبة كبيرة، ثم من الطرائف التي صارت أن إحدى المكتبات التي تبيع لنا هذه الكتب بهذه الأثمان الرخيصة، اشترينا شكسبير وديكنز، حتى الكتب الحديثة، اريوتوغيرو في الفلسفة، كل أنواع الكتب، فوجئت ذات مرة أن سوقًا كبيراً بُنيت في مدينة إكستر، ذهبنا لزيارتها فرأيت في الطابق العلوي مكتبة وعليها مسمّى كبير مكتبة :

إكستر للكتب النادرة (Exter rare books).

ذهبت واكتشفت أن صاحبي الذي يبيع الكتب المستعملة بخمسة بنسات نقل عدداً من كتبه إلى تلك المكتبة وسماها كتبًا نادرة والذي بخمسة بنسات أصبح بـ ٢٠ جنيه، واستغربت أن هذا الكتاب الذي اشتريته بخمسة بنس أصبح بـ ٢٠٠ جنيه، نظرت إليه ونظر إليّ فقال لي : لم جئتَ هنا؟ فهو يعرفني جيداً، فقلت له : جئت أنظر في الكتب، قال : اسمع هذه المكتبة للذين جيوبهم ملأى وعقولهم فارغة، أنت جيبك فارغ وعقلك ممتلئ، اذهب إلى مكتبتنا القديمة، طبعًا بعدها لم أزر هذه المكتبة النادرة وظللت على تلك القديمة.

- المصدر الرابع الأخير هو الشراء، شراء الكتب، أشير هنا إلى مكتبة المؤيد بالطائف؛ لأن لها فضلاً كبيراً عليّ أنا شخصيًا، زرت عمي في الطائف مرة، وليس معي سوى بضعة نقود قليلة، وكنت أتردد على مكتبة المؤيد واقتنيت منها كتب سليمان العيسى حبيبنا وشاعرنا الكبير، نزار قباني، كتبًا أحيانًا بعضها ممنوعة، وكتبًا أخرى لا أستطيع أن أذكر عناوينها إلى الآن وأنا أشعر بممنوعيتها وأن مجرد ذكرها يقود إلى التخمة.

قد تمر حياتنا أحيانًا وننسى أطرافها لكنني فوجئت مرة وأنا أقلّب في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي[١] في مكتبتي وجدت ورقة صغيرة في الكتاب ونظرت فيها وإذا هي مؤرخة في ٤/ ١٠/ ١٣٨٣هـ أي ١٩٦٣م، ومكتوب فيها: (في هذا اليوم المبارك الأغر - ربما تلحظون لغة المراهق الذي يكتب الاتفاق - في هذا اليوم المبارك الأغر أقف عند عتبة انتهاء سنة كاملة لمصادقة الكتب ومحادثتها، وتمامي ربع سنة لممارستي الإنتاجي الأدبي الشعري، أرجو من الله عز وجل أن يوفقني على القراءة اليومية، وأن يهبني زيادة في محبتها، وأن يرزقني ثقافة ومعرفة عامة واطلاعًا، إنه سميع مجيب، عنيزة (ع م غ) كأنني أرمز إلى هذا الكلام نفسه عام ١٩٦٣م، أي أنني أحيل إلى سنة قبلها حيث كنت أقرأ قراءة جادة.

القراءة سيرة ذهنية:

القراءة حينما تكون سيرة ذهنية للشخص لابد أنه سيكتشف في حياته أن هناك أنواعًا من القراءة. والذي رأيته بين يدي ومارسته من القراءة، أربعة أنواع:

- الأولى: القراءة السريعة، مثلما نقرأ الصحف والكتابات الرسمية، أو بعض الروايات.

- الثانية: القراءة المهنية، وهي وظيفة القراءة الناقدة التي أصيب بها النقد؛ لأنني أعتقد أنها قراءة مرضية. إن الناقد وهو يقرأ يفقد شرط المتعة؛ لأنه لابد أن يؤدي العمل ولا يملك الخيار الذي يملكه غيره، بمعنى أنك إذا لم تحب العمل الذي بين يديك تتركه! أما الناقد فلا يستطيع الفكاك، مجبر ومرغم لاستكمال القراءة كرهًا؛ لأنه يمارس مهنة كمهنة! بما أنه ناقد، ولابد أن يكمل المشوار؛ لأنه مطالب أن يبدي رأيًا، وأن يبدي فكرة. فالقراءة المهنية هي وظيفة الناقد، ومن ثم هي عبء عليه، عبء عقلي وذهني، وقد تضر به على المستوى الجسدي والمستوى الذهني؛ لأنه سيمارس

(١) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. وكنيته أبو الحسن، ولقبه قطب الدين. ويعد من أهم الرحالة العرب وقدم معلومات أنثروبولوجية قيمة عن شعوب المناطق التي زارها فذكر أجناسهم وصفاتهم الجسمية وعاداتهم، وتقاليدهم والحرف والمأكل والملبس، والمأوى لكل شعب من الشعوب.

قراءة لا يرغب بها، بما أنها واجب لابد أن يؤديه كناقد، وبما أنه مطالب أن يجيب على أسئلة كثيرة للمجتمع الثقافي عن أي كتاب يصدر حتى ولو كان الكتاب رديئًا، لابد أن يذكر نوعية هذه الرداءة، ولم هو رديء، وما سبب الرداءة.

ـ الثالثة: وظيفية ويدركها كل الإخوة الذين يعملون في الوسط الأكاديمي، والقراءة الوظيفية، تحتاج متابعة رسائل الطلاب في الماجستير والدكتوراة؛ تحكيم أعمال علمية لآخرين من جامعات أخرى، لابد أن تحكمها هذه قراءة. صحيح مستوى العمل فيها أرقى من بعض جوانب القراءة المهنية لكن القراءة الوظيفية لا تنتج المردود المعرفي الذهني لفاعلها، لا القراءة الثانية ولا الثالثة.

ـ الرابعة: وهي القراءة الحقيقية، المهمة والتي يُبنى عليها مصير المعرفة البشرية عمومًا، وهي أسميها القراء الفكرية والقراءة التأملية.

القراءة الفكرية: هو أن يجنح بعضنا متجاوزًا القراءات السريعة التي هي القراءة اليومية، ويتساوى فيها الجميع، والقراءة المهنية التي تعود إلى مهنة الشخص، كمثل القراءة الوظيفية التي تعود إلى دوره كأكاديمي، ثم تأتي القراءة الفكرية؛ لأن في القراءة الفكرية تبدأ صناعة المعرفة، صناعة الأفكار، الجاحظ عنده كلمة مهمة جدًا كان يعرف بها الأدب، لكن من الممكن أن ننقلها لكي تكون تعريفًا لكل شيء يمكن أن نمارسه.

عرّف الجاحظ الأدب بأنه: "عقل غيرك تضيفه إلى عقلك"! الواقع أن هذا هو حالة الكتب، أنت إذا أخذت تقرأ فأنت تمسك بين يديك عقلاً! تمسك بين يديك فكرًا! تمسك بين يديك سلوكًا ذهنيًا، وأخلاقيًا، ومعرفيًا، ونفسيًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، وحضاريًا! ومن ثم أنت تمسك بقيم معرفية. هذه القيم المعرفية تضيفها إلى قيمتك المعرفية، مثل ما تتساقى السواقي، ساقية مع ساقية، نهر مع نهر، مطر مع نبع جارٍ، تبدأ هذه العملية، عقل غيرك تضيفه إلى عقلك، إذا أضيف العقل إلى عقل نتج عنه عقل ثالث، فنتجت العملية التجاور المعرفي، عملية الفنية المعرفية والفكرية، ومن ثم صارت القراءة، هذا الذي يجعلنا نعرف معنى شخص اسمه (الجاحظ).

الجاحظ كان من الفقر إلى درجة كبيرة، ولكي يعالج فقره من جهة، ويعالج حبه للمعرفة من جهة، كان يذهب بالليل ويستأجر دكاكين الوراقين، الوراق في الليل لا يستفيد من دكانه، ليس هناك سوق للبيع والشراء، وإذا جاءه شخص ويعرض عليه ربع دينار، أوحتى فلساً، لكي ينام في الدكان، فلا يمانع في ذلك، لأنه لن يخسر شيئًا، فيستأجر الجاحظ الدكان، ويجلس في الدكان طول الليل على سراج بسيط، ويقرأ من هذه الكتب، ويسلم الدكان إلى صاحبه بعد طلوع الفجر، وظل على هذا إلى أن صنع تفكيره، حينها قال عن الأدب إنه: "عقل غيرك تضيفه إلى عقلك"، وهو حينما يتكلم عن الأدب في زمنه، هو ما يعادل في زمننا المعرفة، المعرفة بعامة، كانت كلمة الأدب تشمل كل أنواع العلوم والمعارف فهي المعرفة. من مقولات العرب أيضًا، وهي مهمة هنا "كل لسان إنسان"! إذا تعلم المرء لغة أخرى إضافة إلى لغته التي يمتلكها، صار لديه لسانان، أي صار هو! فكل لسان إنسان، كل كتاب لسان، وكل كتاب إنسان!

فهذه الإضافة التي تعطي هذا النوع من الدمج، وتعطي هذا النوع من التكوين، تجمع العقل مع المتعة، في تجربتي الخاصة مع القراءة الرابعة (القراءة الفكرية) وجدت نفسي، ثم سمحت لها بعد ذلك. وجدت نفسي بطريقة مختلفة عن طريقة القراءات الثلاث الأخرى، فهي ليست قراءة مستقيمة، قراءة أحيانًا أجد نفسي ترغب في التوقف، لا أمضي في القراءة؛ فأتوقف، وينطلق ذهني، أسمح لذهني بالانطلاق والذهاب، وأجلس أمام الكتاب، وكأنني مُخَدّر، أو نهم، غير طبيعي، وضعي غير طبيعي على الإطلاق، إلى أن تكتمل رحلة ذهني مع ما يريد وأعود للكتاب مرة أخرى، أي أن الكتاب لديه القدرة على أن يدخلك إلى عوالم أخرى لا تمنع هذه العوالم التي يدخلك الكتاب إليها؛ لأنها عوالم ستصنع رؤية، وتصنع فكرة، وتعود إلى الكتاب.

وقد تعوَّدت مع هذه الكتب أن أطيل الأمد معها، ويمضي الزمن معها مدة طويلة، لأن المتعة، بدلاً من أن تكون متعة عاطفية، تكون متعة عقلية، متعة نفسية، وقدرة على إنتاج المعرفة. وتعوّدت أن أكتب على الهوامش، وأضع سطورًا، وأحمل ورقات، وأنا ما زلت إلى الآن، أحمل القصاصات، والورقات، وأكتب على أي ورقة، أي فكرة.

هناك أنواع من الكتب ربما تأسرك أسرًا، وتجعلك عاجزًا أن تغادرها، وتتمنى ألا تنهيها، جرت معي في ثلاثة كتب: أحدها، "داغستان بلدي"[١] لرسول حمزاتوف، أحسست بألم شديد، عندما انتهيت منه، أحسست بفقد، أحسست بضياع، أحسست بأن وجودي ليس له معنى، ليس لدي عمل؛ لأن الكتاب "داغستان بلدي" انتهى، وليس لدي موعد معه كي أقرأه. فشعرت بالرعب لأن الكتاب انتهى، ولم يعد في صفحاته شيء كي أستمر معه.

أيضًا كتاب "مئة عام من العزلة"[٢] إحساسي بهذا الكتاب، وأنا أتقدم في الصفحات، بدأت أهدئ من تقدمي، خشية أن أصل إلى النهاية؛ لأنني لا أريد أن أصل إلى النهاية. كتاب "مثنوي"[٣] لجلال الدين الرومي، ستة مجلدات، كتاب لا يمكن أن أغادره.

إنني في حالة انسجام كبير مع جلال الدين الرومي في "مثنوي"، فهذا الكتاب، كتاب عظيم، كتاب يملأ الروح والعقل معًا، وأنا أنصح أي إنسان يحصل على مثنوي وهو في ستة مجلدات، ونشر في المجلس الأعلى للثقافة في مصر، ترجمة جيدة جدًا، كتاب ثري ثراء يجعلك تعيش قدرة العقل البشري على أن يفتق، أعطيكم فقط مقطعًا صغيرًا فقط لتحسين المحاضرة: يشير إلى مبارزة صيد بين غزال وكلب للصيد،

---

(١) داغستان بلدي: كتاب لرسول حمزاتوف، والذي ولد ١٩٢٣ بقرية تسادا في داغستان شرق جمهورية جورجيا، وقد أسماه والده برسول تيمنا بالرسول ﷺ. ويعد كتاب (داغستان بلدي) من أشهر كتب رسول حمزاتوف فقد أراد أن يكون هذا الكتاب قصيدة حب لبلاده، وسفرًا يخلد إنسانها و أسماء جبالها، ووديانها وجداولها، يتغنى ببطولاتها، حكاياتها وثقافتها وموروثاتها.

(٢) مئة عام من العزلة: رواية للروائى الكولومبي العالمي، جابرييل جارسيا ماركيز، كتبها ماركيز عام ١٩٦٥م في المكسيك، تُعد من أهم الأعمال الإسبانية-الأمريكية خاصة، ومن أهم الأعمال الأدبية العالمية عموماً. وهي من أكثر الروايات المقروءة والمترجمة للغات أخرى. وتروي الرواية. يروي الكاتب أحداث المدينة من خلال سيرة عائلة بوينديا على مدى ستة أجيال والذين يعيشون في قرية خيالية تدعى (ماكوندو).

(٣) المثنوي أو "مثنوي معنوي" بالفارسي، هو ديوان شعري باللغة الفارسية لجلال الدين الرومي. والمثنوي يعني بالعربية (النظم المزدوج)، الذي يتّحد شطرا البيت الواحد ويكون لكل بيت قافيته الخاصّة، وبذلك تتحرر المنظومة من القافية الموحدة. وللمثنوي طبعات متعددة ونسخ مخطوطة كثيرة منتشرة في مكتبات العالم، كما أن له شروحاً كثيرة بلغات مختلفة، منها الشرقي ومنها الغربي وبلغت عدد أبيات المثنوي ٢٥٦٣٢ بيتاً، موزعة بين أجزائه الستّة وفيه ٤٢٤ قصة تشرح معاناة الإنسان للوصول إلى حبه الأكمل الذي هو الله.

فالغزال هارب، وكلب الصيد يجري وراءه لكي يصطاده، فالغزال يجري، وكلب الصيد يجري وراءه، بعد مدة من الجري، والكلب وراء الغزال، التفت الغزال إلى كلب الصيد وقال له: إنك لن تلحق بي، قال كلب الصيد: لماذا؟ قال الغزال: لأنني أركض لنفسي، وأنت تركض لسيدك!!

هذا جلال الدين الرومي، عندما تدخله ويدخلك إلى هذه العوالم، انظر الدقة، وقارن الذي يجري لنفسه، والذي يركض لسيده، ثم انظر إليه وقد جعل الذي يركض لسيده كلبًا، والذي يركض لنفسه غزالاً، انظر المعاني الرمزية فيها؟ أين البعد، عندما تذهب لموظف الآن وترى الموظفين الناجحين، تجد أن الموظف الناجح هو الذي يعمل لنفسه، هذا عمله هو ليس شغل الدولة، ورئيسه، عمل العلاوة، عمل التقديرات، رأينا أمثلة كثيرة لمن يستميت في العمل، ويقولون له: ليس لك شأن، ما أحد يدري عنك، ما أحد يقدر، ما أحد شاعر بك، والله أنت وغيرك لديهم سواء، ومع ذلك يعمل، هذا هو الغزال، الجنس البشري نسميه، جنس الغزلان، لكن هناك جنس آخر، جنس كلاب الصيد، يركض، لكن الذي يصيده يعطيه لسيده، هذا جلال الدين الرومي، الذي يبهرني عندما أدخل إلى عالمه، وجوته أيضًا، جوته في الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، حينما تقرأ في جوته، وتشعر بهذا العقل البشري، كيف يفتق الأفكار، ويفتق المعاني، كيف يجعلك تشعر أن تحب نفسك، وتحب العالم من حواليك.

إجابات على أسئلة الحضور:

١ - من الكتب التي حولت مفاهيمي، منذ صغري، (العقد الفريد) لابن عبد ربّه[1]، وإلى الآن، وقد مر عليّ إلى الآن ٣٠ سنة ولم أرجع إلى العقد الفريد، لكن أستطيع الآن وأنا أتكلم، أرى الصفحات، وأرى السطور، وأرى المعلومات، الحظوا

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن سالم. ولد بقرطبة في العاشر من شهر رمضان عام ٢٤٦هـ ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وأمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية وطول الباع في الشعر منه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أشهر كتبه (العقد الفريد)، وهو كتاب جامع للأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض والموسيقى، وقد استوعب خلاصة ما دوّن الأصمعي وأبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم من أعلام الأدب.

الذاكرة البصرية، أستطيع أن أحدد معلومات ومواقع في العقد الفريد بقراءتي التي انتهت منذ أكثر من ٣٠ عامًا، كنت مغرمًا به، ثم بعد أن دخلت في عالم النقد، أعجبت بالجرجاني[1] في كتابيه (أساس البلاغة) و(دلائل الإعجاز)؛ لأن في كل مرة أعود فيها إلى الجرجاني، أشعر كأن الجرجاني كتب أمس.

٢ - ومن ثم لابد من أقرأ ما كتب بالأمس، غير ما كتب قبل قرون، هذه العلاقة الوثيقة، التي تتخلّق معك، بينك وبين الكتب، دون إرادتك..!

ولكن بالتجريب المستمر مع عمل الكتب، بحيث إن الكتب تصبح عقلك الذي عبره تنظر إلى العالم، ربما في هذه الحالة - وهذه بالنسبة لي تجربتي الخاصة - أن الثمن ليس سهلاً، لا على المستوى الصحي، ولا على المستوى النفسي، ولا على المستوى الاجتماعي.

وربما سأل سائل: كم ساعةً أقرأ؟! الحقيقة أن كل وقتي قراءة، كل لحظات حياتي قراءة، إذا ما أقرأ أشعر أنني لا شيء، أنني هباء منثورٌ، الكتابة العكس، الكتابة عندي قليلة جدًا، الكتابة عندي مرتبطة ارتباطًا كبيرًا جدًا بالمزاج، الكتابة عندي مزاجية، إذا كان عندي مزاج أن أكتب كتبت، مزاجي لا يريدني أكتب، لا أصدق عقلي!

هناك كلمة عند الإنجليز مهمة جدًا، وقد تعلمتها منهم، يقولون: Believe your body صدق جسدك، لا تصدق عقلك، بمعنى إذا أحسست بإرهاق، لا تقول لماذا أنا مرهق؟ والله أنا نمت اليوم بشكل جيد، ما تعبت، لكن إذا جسمك يقول أنك مرهق، صدقه، لغة الجسد، أيضًا لغة الكتابة عندي هي لغة المزاج، إذا مزاجي

---

(١) هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، فارسي الأصل، جرجاني الدار، ولد في جرجان وعاش فيها دون أن ينتقل إلى غيرها. يُعد مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر. كما ألف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن) حققها مع رسالتين أخريين للخطابي والرماني في الكتاب نفسه كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، وهي من أفضل ما كُتب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة. وتوفي (عبد القاَهر الجرجاني) عام ٤٧١هـ.

غير مضبوط، وهذه تعلمتها من أستاذي في بريطانيا، وهو مستشرق هولندي، رآني مرة فقال لي:

- ما بك يا عبدالله وجهك غير طبيعي؟

- قلت له: البارحة كنت مع موضوع، وقد كرهت هذا الموضوع، وأشعر أن الموضوع يكرهني أيضًا!

- فقال لي: إذا لم تحب الموضوع، اتركه!

أي موضوع لا تشعر بمحبة معه اتركه، لابد أن تكون علاقة حب بينك وبين موضوعك تنتج، إذا لم توجد تلك المحبة، لا تقهر نفسك، لا تجبر نفسك على شيء، اتركه واذهب إلى منطقة أخرى.

طبعًا الخليل بن أحمد[1] أدركها لما وجَّه رسالته إلى الأصمعي[2]، وقال: إذا لم تستطع شيئًا؛ فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع، ترك الأصمعي علم العروض؛ لأنه عاجز عنه، واتجه إلى الرواية، وصار سيد الرواية في الثقافة العربية، لكنه لو ظل عروضيًا، لما سمعنا به! هناك مناطق يجب أن نتجاوزها.

٣ - أظهر عيوبي وأخطر عيوبي هي علاقاتي الاجتماعية؛ لأن علاقاتي الاجتماعية منعدمة (صفر)، بسبب هذه الكتب.

مسألة العزلة، بالنسبة لي كانت إيجابية، لأنها أدت بي لأن أقرأ، وأن أكتب، وألا يشغلني شاغل، القراءة ضارة أم ضرورية؟ هما معًا، الحقيقة، القراءة ضارة، لأن المعرفة خطيرة في كثير من الأمور، كونك لا تعرف تكون في الواقع أسعد، كلما

---

(١) هو أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (١٠٠- ١٧٣هـ/ ٧١٨ - ٧٩١م) وهو عربي النسب من الأزد، ولد في عُمان عام ١٠٠ هـ، وهو مؤسس علم العروض ومعلم سيبويه وواضع أول معجم للغة العربية وهو (العين)، أخذ النحو عنه سيبويه والنضر بن شميل وهارون بن موسى النحوي ووهب بن جرير والأصمعي والكسائي وعلي بن نصر الجهضمي. وأخذ هو عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي.

(٢) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي (١٢١ - ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ - ٨٣١ م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جداً. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر).

جهلت ازددت سعادة، قالها أبو تمام من قديم. حمزة شحاته - رحمه الله - قال مقولة، وكررت عند غيره، ونسبت لغيره، مع أنه هو صاحبها، إذا ازددنا علمًا ازددنا جهلاً، لأنه كلما تكشف أمامك العالم، أدركت مقدار جهلك، لا شك أن الجاهل سعيد، بكل تأكيد، الجاهل سعيد، والذي يريد أن يكون سعيدًا، أقول له: لا تقرأ كتبًا، ولا تستمع للتلفزيون، ولا تتابع أحداث لبنان والعراق وأفغانستان وفلسطين، هذا بالتأكيد، وبكل صدق، المعرفة والمعلومة لها ضريبة، وثمنها باهظ، قلق نفسي، توتر، أُناس انتحروا بسبب أنهم تعلموا كثير، وصدموا بالكون وبالبشر، نتيجة لتعلمهم، فالقراءة ضارة، ولكنه ضرر تحتاجه، أيضًا المغامرة، الذي يصعد إلى قمة إفرست، أو يدخل في سباق سيارات، أو مباراة مصارعة، هناك ضرر، لو أخذنا مفهوم الضرر، وقلنا: إن أي شيء ضار يجب أن نتجنبه، سينتهي بنا الأمر إلى أن لا نعيش، الصعود إلى النخلة لقطف التمر، يمكن أن تسقط وتموت، بكل تأكيد، فالضرر يحيط بالإنسان، وبكل تحرك خارج إطاره يجعله عرضة للضرر، بما فيها القراءة، لكن هل هي ضرورة؟ أقول: نعم، نعم ضرورة، لأن الله وظفنا بأن جعلنا خلفاء في الأرض، قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ [البقرة ٣٠].

٤ - فالإنسان خليفة الله في الأرض، يجب أن يعمرها، إذا لم يعمرها، لن تنعمر هذه الأرض، ويمكن أن نطرح السؤال الأساسي، لماذا نبني ناطحات سحاب؟ ولماذا نبني مدنًا كبرى؟ لأن في النهاية الإنسان يموت وانتهى الأمر، لن يسألك ملك الموت، هل بنيت أم لم تبن، ألفت أم لم تؤلف، أخذت الدكتوراة أم لم تأخذها، ما دام المسألة هكذا، إذًا ليس هناك داع ولكن الله جعل بداخلنا شيئاً، مخترعاً مهماً، مخلوقاً ربانياً مهماً وهو النسيان، أي يجعلنا ننسى الضرر دائمًا، إذا لم تنس الضرر لن تفعل شيئًا، لكن لأنك تنسى مضار الأشياء، وتنظر في منافعها فقط، تعمل بجد

ونشاط، وظيفة النسيان مهمة، لازم أنسى الضار، ولا أتذكر إلا النافع، وهذا الإغراء الكبير بالنافع دون الضار الذي يدفع بالإنسان للعمل. أنا شخصيًا سعيد بهذا، لأن علاقتي مع الكتب، علاقتي مع العالم الآخر، العالم الذي هو ليس بين يدينا، عالم الأموات.

٥ - أتذكر في هذا المقام، قصص كتاب: (بداياتي في الصحافة والأدب) لعلي محمد العمير[(١)]، والتي روى فيها، سيرته الذاتية.. ومنها أنه قد عاش في قرية جنوبي المملكة العربية السعودية... وهناك صار يقرأ كتبًا، فجأة سافر من منطقة جازان إلى مكة المكرمة،.. وهاله أن يرى، كلاً من: محمد حسين زيدان[(٢)]، أبا تراب الظاهري[(٣)]، وعبدالفتاح أبو مدين[(٤)]؛ كما هاله أن يراهم وغيرهم أحياء!! لأنه تعوّد أن يقرأ ألفية ابن مالك، وبعدها توفي عام كذا وكذا، وكتاب الأغاني للأصفهاني وفي نهاية الكتاب المتوفى عام كذا وكذا، فاعتاد على أن المؤلفين أموات ولم يعتد أن يرى مؤلفين أحياء!

(١) الكاتب المعروف، له مناوشات أدبية وإبداعات صحفية. دخل الصحافة من نافذة الأدب فحققت له مطامح أدبية إلى حد ما يشيد بنضج التجربة النقدية. تخرج من المعهد العلمي بصامطة. وكانت هذه انطلاقته الحقيقية في الصحافة، حتى وصل إلى مدير تحرير صحيفة الجزيرة. زاويته المشهورة في عكاظ "تحت الشمس".

(٢) محمد حسين زيدان: أديب وشاعر وناثر ومؤرخ وفيلسوف ونسّابة وفقيه ومجرّب وعلاّمة في الإناسة وعلم الحديث ومنابر الخطابة والمحافل والمجالس، ومن طلائع الخطاب النهضوي في الحجاز. من مواليد المدينة المنورة. اشتهر بلقب زوربا الحجاز، لاستيعابه الخارق للتاريخ، ولاسيما التاريخ الإسلامي، وتذكره ألوافي للأحداث ما يدعو للانبهار ويجبر على الإعجاب.

(٣) أبو تراب: هو العالم الجليل أبو محمد عبدالجميل بن محمد بن الهاشم، ويكنى بأبي تراب الظاهري، ولد، ونشأ في مدينة «أحمد بور، بالهند»، قدم إلى المملكة بطلب من الملك عبد العزيز، طيّب الله ثراه، له نحو خمسين كتابا، في مختلف الفنون، طبع منها نحو خمسة وعشرين كتابًا.

(٤) عبد الفتاح أبو مدين، ناقد أدبي سعودي، من أصول ليبية، من مواليد طرابلس الغرب ولكنه نشأ وترعرع في المدينة المنورة. يعد من رواد العمل المؤسسي الثقافي. شغل منصب رئيس النادي الأدبي الثقافي بجدة، شهد النادي في عهده (١٩٨٠-٢٠٠٦م)، نشاطات وإسهامات ثقافية متنوعة. أسهم في إصدار عدد من الدوريات الشهيرة على مستوى العالم العربي، كجذور الخاصة بنقد التراث العربي، ونوافذ الخاصة بالترجمة للأعمال الأدبية العالمية، وعلامات للنقد الثقافي والأدبي، والراوي، وعبقر. كما أسس مجلة الرائد الثقافية، وفي عهده تم تأسيس كيان (ملتقى النص) التابع للنادي الأدبي والثقافي بجدة، وجماعة (حوار). رأس تحرير صحيفة البلاد (صوت الحجاز) لمدة سبع سنوات.

كانت التجربة بالنسبة له أكبر من طاقته الاستيعابية، وإذا رأى مجلة في مكة وفيها صورة لطه حسين، وصورة للعقاد، فتعجب، أن هذه صورة طه حسين، وهذا العقاد، إذن أين صورة الجاحظ؟ أين صورة امرئ القيس؟ يحاول أن يلمس صورة طه حسين على الورق؛ لأنه لا يستطيع أن يتصور، العلاقة الذهنية مع الكتب تبني هذا العالم الآخر، الموازي للعالم الحقيقي!

٦ - نحن أمام خيارين، إما أن نعيش العالم الحقيقي بكامل شروطه، أو أن نعيش العالم الذهني المعرفي بكامل شروطه، أو أن يرى بعضنا، ويستطيع أن يجمع بين العالمين، وأنا أعتقد أنني لا أستطيع الجمع بين العالمين.

أعتقد أنه من المهم لأي إنسان إذا اتخذ قراراً أن يتخذه بكامل شروطه، أو ألا تأخذه، لا تستطيع أن تأخذ في مجال الحياة مجاميع من الأشياء، ومجاميع الأشياء هي بعثرة، إذا لم تمض بكل قوتك في اتجاه واحد وعقل غيرك إذا أردت أن تضيفه إلى عقلك، لابد أن تستحوذ على هذا العقل كاملاً، لكي يمكن أن يعاد مستساغًا ومستنسخًا ومستنتجًا.

القراءة بكل تأكيد، دورها مهم، وسأعطي مثالاً واحدًا على أدوار خطيرة جدًا للقراءة كيف تفعل؟ قصة رواها تودوروف عن غزو أمريكا عن كولومبس، وهو أن كولومبس لما وصل إلى بعض مناطق الهنود الحمر، واستعصى عليه هذا الموقع، وظل يحاول اقتحام الموقع ولم يستطع، ولكن بسبب قراءاته في الكتب علم أن ليلة الغد سيحدث كسوف للقمر، فأرسل لهم رسالة وقال فيها: إذا لم تستسلموا فسأسرق منكم القمر!! استهتروا بالرسالة، اليوم التالي ليلاً عندما بدأ القمر يخسف، أرسلوا له رسولاً، وقالوا له: تعال استسلمنا، خافوا من فكرة أن يسرق القمر، هو بحساباته أدرك أن القمر سيخسف، المعرفة في قوتها لها دور سحري، دور نافع، دور ضار، دور منتج، دور يغير تغييراً نوعيًا للكائنات.

٧ - ونحن الآن في هذا الزمن نتحدث وباستمرار أننا في عصر المعلومات، وأن من يملك المعلومة في هذا الزمن، يستطيع أن يضع له قدمًا مهمًا جدًا في الحياة، والذي يفقد المعلومة سيصبح محتلاً ومستعمراً في داخله بالضرورة.

المعرفة قيمة كبرى، الكتاب قيمة كبرى، من قال: إن الإنترنت سوف تزيل الكتاب، لا شك أنه لم يقرأ التاريخ قراءة كافية؛ لأن الكتابة لم تستطع إزاحة الشفاهية، الصورة لم تستطع إزاحة الكتابة، تظل متجاورة..!

التلفزيون لما جاء لم يلغ السينما، ولم يلغ الراديو، ولم يلغ المسرح الحي على خشبات المسرح..!

مهارة القراءة عند الغربيين اليوم الذي يعيش في الغرب ويركب قطاراً، أو طائرة، أو يرى قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، سيرى كتبًا بالملايين تباع في مجتمع عنده من الفضائيات، والوسائل المتعددة، لكن هذه الصيغ التي تحدث هي صيغ تنتقل من آلية إلى آلية.

٨ - أحيانًا أكون انتقائيًا، وسلبيًا في القراءة! أحيانًا تمر بي المراحل الثلاث مع الكتاب الواحد، مع الكتاب نفسه، لا يوجد كتاب كتلة واحدة! أحيانًا تجد كتابًا ينقلك بين هذه الأشياء كلها، لكن السلبية مع الكتاب في عرفي هي إيجابية أيضًا، لأن السلبية هي عمل تحد بين طرفين، هي نقاش نقدي بين طرفين، عنف متبادل بين طرفين، عنف من الكتاب عليك، ومنك أنت على الكتاب، فهذه نوع من الممارسات التي تحدث لنا كلها، ونعيشها، ولذلك أنا من الشخوص الذي أسمح لنفسي أن أعمل بكل ما يمكن أن يعمل مع الكتاب، كأنه إنسان، وشخص أصارعه أحيانًا، أضمه وأعشقه أحيانًا، أسمح له بالدخول إليّ أحيانًا، أسمح لنفسي بالنفور منه، وأسمح له بالنفور مني أحيانًا، قلت: إن انصرافي عن المجتمع جعلني أعيش مع كائنات ورقية خيالية، عالمي هو عالم المكتبة، عالم الورق، عالم الكائنات، والكتب التي تحدثت عنها واشتريتها، إلى الآن موجودة عندي، مكتبتي التي هي في بيتي، هي الكتب التي كنت قد أخذتها في المرحلة الصغرى، ما تزال، كتاب: الكامل للمبرد، الآن بدأ الورق يتيَّبس، ويجب أن أحركه بطريقة دقيقة جدًا، وألا تنكسر الصفحات، قديم جدًا، هناك ألفة بيني وبين الورق، بيني وبين الكتب هناك محبة، أولادي يجلسون في الحديقة يستمتعون، أنا أجلس في المكتبة وأشاهد كعوب

الكتب، منظرها متعة كأنها ورود وزهور، وكأنني أحكي مع هذا وذاك، فهذا عالم؛ لأنني لا أعرف عن نفسي أنني صرت سلبيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة مع أي كتاب على الإطلاق، أحترم الكتاب، أحيانًا عندما يكون هناك مؤتمر في القاهرة أو في تونس، كثيرون يهدون كتبًا، تعرف أن بعض الكتب لا تعنيك، والله احترامًا للإهداء ولكل شيء، أحملها ولو دفعت مبالغ إضافية بالشحن، احترامًا لشخص قدم كتابه إليّ وعليه إهداء، لا يجوز في عرفي حتى على المستوى الديني أو الأخلاقي، أن تهين كتابًا أهدي إليك، أعتقد أن هذه إهانة أخلاقية وثقافية، لا تليق بإنسان يحترم نفسه أن يفعلها، لدي قائمة كبيرة بكتب لا يوجد لدي مجال أن أقرأها لا تدخل في عالمي، ولكن احترامًا للذين أهدوها لي، أو أرسلوها أضعه، للزمن، يومًا من الأيام سيستخدم، لم يحدث أن صار لي موقف سلبي، لأنني نشأت تحت مظلة الكتب، وبالكتب، ومن أجل الكتب.

٩ - مع الإنترنت الواقع أننا نقرأ، بدلاً من أن نقرأ من صفحة نقرأ من شاشة، قبلنا كان الأعرابي يقرأ صفحة السماء بنجومها، مثل ما نقرأ نحن صفحة الكتاب، نعرفها حرفًا حرفًا.

إن عجز الأعرابي أن يقرأ هذه الصفحة وأن يقرأها كلمة كلمة، فهو يستطيع أن يرفع بصره إلى السماء، ويقول لك عن كل نجم، وعن كل حركة، وعن كل نوء، وعن كل تشكيل للريح، وغير الريح، يقرأ صفحة السماء مثل ما نقرأ نحن الكتاب، مهارة القراءة أصلاً هي غريزة بشرية، شرط بشري، نستطيع أن نحول هذه الغريزة، وهذا الشرط، إلى قيمة معرفية، وقيمة علمية.

طبعًا أحس في الإنترنت، عجزاً وإحساساً بأن الزمن مرَّ وتركني خلفه، ليس لدي القدرة، وخاصة القدرة البصرية، لأن المشكلة لدي بالبصر والرؤية، وأصابعي تيبَّست، فعلاقتي بالإنترنت والدخول إليه، السياحة فيها تكاد تكون صفرًا!

لدي موقع الآن موجود، ولم أعد بعد المقدمة، فهذا الموقع حديث جداً، فقد وضعت خطابًا موجهًا للزائرين والزائرات، أقول فيه: اعذروني، لم أضع منتدى؛ لأنني لا

أريد أن أهين الذي يدخل المنتدى فلا يجد أحدًا يرد عليه! فليس لدي لا الوقت ولا القدرة على الرد، فجعلت الموقع بدون منتدى؛ لأن من العيب أن تعمل منتدى، ثم يداخل الناس، ثم لا ترد عليهم، لكي لا يحدث هذا، ولا أقع في هذا العيب الأخلاقي، جعلت هذا غير موجود، هذه كتبي اقرأها وتصرف فيها، والحمد لله رب العالمين، وليس لدي القدرة، ولدي عجز وأعلن عنه، عجز جسدي، وعجز بمكوناتي الخاصة أن أفعل هذا، ولذلك هذا وضعي، وهذا الوضع الذي أصبحت فيه، طبعًا بهذا أخسر شيئًا كثيرًا بكل تأكيد، ولكن هذا الواقع.

ولربما سأل سائل: لو كانت الوسائل هيئت لنا في ذلك الزمان، هل كنا سنترك الكتب ونتجه إليها؟! أجيب بكل تأكيد، بالعقول الصغيرة، سيحدث هذا، لكن بالعقل الكبير الذي يسترجع الأحداث، يجب ألا يحدث؛ لأن ممارسة العلاقة مع الورقة المكتوبة، والكلام المكتوب، لها أهمية عضوية شديدة جدًا في علاقة العين مع الكلمة، علاقة العين مع الذهاب والإياب مع الأسطر والعودة إليها مرة أخرى، والوقوف معها، معروف في الدراسات كلها، الذاكرة البصرية، ودور الذاكرة البصرية، وأهمية الذاكرة البصرية، وقدرة الذاكرة البصرية على تثبيت كل ما هو في مجال الإبصار، واستدعائه مرة أخرى يكون أقوى وأسرع، فالذاكرة البصرية وظيفة، في الإنترنت وغيرها، الذاكرة البصرية سريعة، تسرع التنقل بشدة، لكن التعامل مع الكتاب في علاقة الجسد مع الجسد، لأنني أعد الكتاب جسدًا آخر، تشبه أن تحب أحدًا بالأحلام، أو أن تحب بالحقيقة الجسدية بين جسدين، الحب بين جسدين له قيمة، والحب عبر الأحلام والأوهام له قيمة مختلفة، ابن حزم أشار ذات مرة إلى شخص أصيب بمرض واكتئاب، لماذا؟ لأن هناك امرأة يحلم بها ذاك وهي غير موجودة، وأحبها ولم يستطع أن يتزوجها، فأصيب بمرض، وتكلم ابن حزم عن هذا في "طوق الحمامة" هذا المعنى صحيح، بكل تأكيد صحيح، لكن صحة مختلفة عن صحة مباشرة الجسد مع الجسد، مجنون ليلى، حينما استحال عليه الحصول على الجسد، الذي يحبه، جنّ، وأصيب بالجنون، فردة الفعل قوية، العلاقة مع الكتاب،

هي هذا النوع، لذلك لابد أن نُشعر الناس بتجربتنا نحن مع الكتاب، وكيف أن الكتاب هو بحد ذاته عقل، كتلة عقلية تضيفها إلى عقلك؟ وهذا المفعول له مجموعة آليات، بعضها حسي، بعضها معنوي، بعضها ثقافي، اجتماعي، مادي أيضًا، إذا اشتريت الكتاب هناك التزام مادي، لأن شراء الشيء بنقودك، يجعل هذا الذي اشتريته بمالك، علاقته معك أعلى بكثير من الشيء المجاني.

١٠ - ولكن قد يثور سؤال مهم : هل المطلوب منك أن تقرأ نصًا أم تحصل على معلومة؟ الحقيقة مجرد الحصول على معلومة يجعل الرأس خواء، جدًا، مبرمج برمجة آلية، العرب يقولون: كل إناء بما فيه ينضح!

هذا الرأس إناء، إذا ما تضع فيه شيئًا ما تنضح، إذا امتلأ تنضح، لذلك تجد في تجارب كل العباقرة، كل الكتاب، كل المبدعين، كل العظماء، ترى في تجاربهم أنهم كانوا قراء ممتازين بالدرجة الأولى، ثم تراهم مقلدين تقليدًا قطعيًا مئة بالمئة ، ثم مبدعين بعد ذلك، يخرج بهذه السلسلة، إذا لم يمر بهذه السلسة لن تتحقق له هذه القوة من حيث الثراء، من حيث المقدرة، من السعة، من حيث الانتشار.

١١ - هذا واضح لنا بازدواج اللغة الذي نعيشه، عندنا اللغة الأم وهي العامية، وعندنا اللغة الفصحى التي نسميها الأم، وهي ليست الأم، هي لغة مكتسبة، ما لم تكتسب هذه اللغة من الكتب، ومن القراءة، ومن الاستمرار معها، لن تصبح لغة أُمًا عندك، ستظل لغة بعيدة، لغة آخرين، لغة الجاحظ وامرئ القيس، والمؤلفين، وطه حسين، والكتب، وليست لغتي أنا، لكي تكون لغتك أنت ويستقيم ويتحسن اللسان لابد أن تكتسب.

الخلفاء في العصر العباسي، كانوا يرسلون أولادهم، لأن معظم أمهات العباسيين فارسيات، جوار، يعايشون جواري، فكانوا يرسلونهم إلى البادية لكي يتعلم أحدهم اللغة، ويأخذها، الواقع كان يأخذها من كتب، ولكنها كتب تمشي على قدمين، يسمون رجالاً، يسمون أعرابًا، ولكنهم كتب في الواقع، الآن الأعراب جاءونا على ورق مكتوب، ومن ثم نتعامل معهم، اللغة هي حالة اكتساب واكتناز،

بعدها يمكن أن يصبح الإنسان منتجًا، المعلومة، في حالة وظيفة شخص في إدارة معينة في الجوازات أو في الأمن، أو في المطار، أو في الجمارك، يحتاج إلى معلومة لأنه سيؤدي وظيفة، لكن هذا ليس مبدعًا، أنا أذكر كلمة عظيمة، والله بعض الكلمات تكون عجيبة جدًا عندما تفكر فيها، كلمة لمحمود درويش، يقول فيها وتأملوا معي: يقول فيها: "إذا لابد من تقليد فقلد غيرك، لا تقلد نفسك"، إذا قلدت نفسك تكرر نفسك، إذن ليس هناك فائدة، تندم تدخل في هذا الانغلاق، لكن تقليد غيرك، معناه أنه أدخلك إلى عالم آخر، وهذا بالتالي ينقلك ويجعلك مبدعًا، طبعًا لو قلتها لبعض الناس، يرد عليك: لا تقلد غيرك، ولا تقلد نفسك، هذا هو الأفضل، هذا كلام مجاني!

الرجل يقولها عن حرقة، حرقة يفهم فيها خطر اللغة، وخطر الكلمة، وعظمة الكلمة، والنبش القاتل من أجل الكلمة، فإذا عجزت عن كلمة تصنعها أنت، كلمة لم تصنعها من قبل، لا تقلد نفسك، وتأتي بكلمة سبق وأن قلتها، لأنك بذلك كررت نفسك، والمتقدم يلغي المتأخر، فأنت ألغيت ذاتك، لكن قلد غيرك، تقليدك لغيرك، يجعلك مرة مرتين ثلاث أربع، ثم تنتبه، وتعي أن هذه الإضافات المكتسبة ستغير مسارك، الإنسان الذي عاش حرقة النص، أو لذة النص، النص متعة، النص لذة، أبو السائب المخزومي، تعرفون قصته عندما سمع بيتًا من الشعر، وكان عنده بئر (ساقية) فذهب إلى البيت ورمى نفسه في البئر من شدة إعجابه بهذا البيت، وتعرفون قصة الفرزدق عندما سجد لبيت للبيد، عندما سمع بيتًا للبيد، فسجد، قالوا كيف؟ قال: إن للشعر سجدة، كما أن للقرآن سجدات، قتله البيت، شدة البيت، ضخامة البيت في عرفه، جعله يخرج عن طوره، اللغة لها قيمة عظمى، أحيانًا نستهتر نحن بقيمة اللغة، نستهتر بها فعلاً، وأعتقد أن جزءًا من أزماتنا الحضارية، أننا لم نعط اللغة حقها من التقدير الحقيقي، نقول ما لا نفعل، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" هذه صفة المنافقين، نحن نقول ولا نفعل، عدْ ولا تفي، قل فلسطين عربية، قل سننتصر، عد أهلك، استهتار باللغة، متى نعيد للغة حقها؟ إذا جعلنا اللغة قيمة، وأنا

ذكرت المثل العربي الذي يقول: "كل لسان إنسان" نرى تجربتنا نحن الآن نرى بعض إخواننا البنجلادشيين، العمال، وننظر لهم - مع الأسف الشديد - نظرة دونية، لماذا؟ لأنه لا يملك اللغة التي لديك؟ لكن قد يكون في لغته شاعرًا وعبقريًا، أو كاتبًا كبيرًا، يكتب عن التجربة التي عاشها هنا، لو تحدث بلغته، تغير وضعه، زهير[(١)] يقول:

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

أي يزيد أو ينقص في التكلم، اللغة قوة، اللغة سلطان، طبعًا المعلومة أيضًا قوة بكل تأكيد، لكن المعلومة قوة على مستوى الأداء، مستوى الدولة، مستوى المؤسسات، مستوى الجيوش، مستوى البنوك، مستوى العمل، فأنت محتاج لها في هذا المجال، نعرف في أمريكا المجهود الذي يبذل من أجل كتابة خطاب الرئيس، أو خطاب المرشح، رونالد ريجان، يقولون: إن الذين يكتبون خطابه خمسة أشخاص، واحد يكتبه، والثاني اقتصادي يراجعه من هذه الناحية، والثالث سياسي، يراجعه من الناحية السياسية، والأخير شخص كوميدي، يكتب لكي يجعل في الخطاب فقرات تضحك، ويجعله يخطئ ويتعمد ذلك، ثم يعود ليصحح لنفسه، لكي يضحك، ويضحك الجمهور معه، لكي يكسر الرتابة، فهذا جزء من صناعة اللغة! ابن جني[(٢)] عنده كلمة عظيمة يسميها شجاعة العربية، طبعًا هذا في زمانه، لا نحن ولا عربيتنا، شجاعة العربية، أي قدرة اللغة العربية على تفتيق الصيغ والمصادر، والقيم الصرفية، التفتيق المستمر الذي لا ينتهي، فسماها شجاعة اللغة، بما أن لا يردها شيء، لا نستطيع أن نفعل هذا إلا باكتساب اللغة عبر القراءة!.

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني ولد عام ٥٠٢م حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضّله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره: كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد مُزَينة بنواحي المدينة المنورة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام.

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جني المشهور بابن جني عالم نحوي كبير، ولد بالموصل عام ٣٢٢ هـ، ونشأ وتعلم النحو فيها على يد أحمد بن محمد الموصلي الأخفش. ويذكر ابن خلّكان أن ابن جني قرأ الأدب في صباه على يد أبي علي الفارسي حيث توثقت الصلات بينهما، حتى نبغ ابن جني بسبب صحبته، حتى أن إستاذه أبا علي، كان يسأله في بعض المسائل، ويرجع إلى رأيه فيها. على الرغم أن ابن جني كان يتبع المذهب البصري في اللغة إلا أنه كان كثير النقل عن أناس ليسوا بصريين في النحو واللغة وقد يرى في النحو ما هو بغدادي أو كوفي، فيثبته. له ما يفوق الخمسين كتاباً، أشهرها كتاب "الخصائص" الذي يتحدث فيه عن بنية اللغة وفقهها.

١٢ - أمّا بالنسبة للحديث الذي يُثار من وقت لآخر عن أن العرب لا يقرؤون، أنا لا أعتقد به تمامًا، أعتقد أن هناك مشكلة في الاستطلاعات؛ لأن لدي مؤشرات كثيرة الشخص يقرأها بدون استطلاعات، لما أرى كتاب: (لا تحزن) لعائض القرني، ويبيع ثلاثة ملايين نسخة، وأنتم تخصص مكتبات، أنا فهمت من أصحاب تخصص المكتبات، أن جريدة واحدة معناها ثلاثة قراء! كتاب واحد معناه ثلاثة قراء! يندر أن يكون الكتاب يساوي قارئًا واحدًا؛ لأنك تقرأ وأخوك، وأختك، وجارك، وصديقك، أو أحد يستعيره منك، فمليونان معناهما ستة ملايين، أنا تابعت، ولدي موضوع سأطرحه عن كتاب (لا تحزن)، لأنني تابعت، وأجريت إحصاءات واستطلاعات، في مصر، في اليمن، في المغرب، بيع بأرقام هائلة، أيضًا اذهب إلى كتب الدين، وانظر مقدار مبيعاتها، أيضًا اذهب إلى كتب السحر، وانظر حجم مبيعاتها، اذهب إلى كتب الطبخ، وشاهد كم يباع منها، اسألني الآن عن نوع المقروء، أقول نعم؟! إذن يجب أن نفرق الآن بين أنهم يقرؤون أو لا يقرؤون، وبين ما المقروء؟

حس التأثيم هو الذي شطر بين ما الذي نقرأه والذي لا نقرأه، صار الاتجاه إلى قراءات معينة، لأن ليس بها تأثيم، ولما تقرأ كتاباً في الدين أو في الموعظة، لأن هذا يقوي دينك، ومن ثم لا يأثم، لكن لو قرأ كتابًا في الرواية، قال: هذا تضييع وقت! هذا يمكن أن يفسد أولادي وبناتي في البيت، يمكن أن يفسد الناس الذي يستعيرونه مني، فيبدأ في عملية انصراف عن هذه الأشياء!

نحن الذين شطرنا العقل الاستقبالي في التعامل مع القراءة، لكن أنا أعتقد، شاهدوا الناس الذين يقرؤون عن التعليقات الرياضية، أنا مجرب في الجامعة، عندما أدخل على الطلاب في الفصل، أشاهد جميع الطلاب فاتحين الصفحات الرياضية، ويقرؤون عن اعتزال ماجد، اعتزال سامي، عن الهلال والنصر، عن المنتخب، عن برشلونة، عن غير ذلك، إذن هم يقرؤون، من حيث أن يقرأ، أيضًا لما ترى الناشرين، الناشرون يعرفون، وقد جالست الناشرين كثيراً وتناقشت معهم كثيراً، خاصة الناشرين اللبنانيين، يعرفون بالضبط أن هذا الكتاب سيباع ويشترى، وذاك

الكتاب لا، يعرف بالضبط أن هذا الكتاب سيباع بالآلاف، وهذا الكتاب سوف يباع بكميات صغيرة، عنده معرفة بذلك، العلة إذن الآن، ليست في أنهم يقرؤون أو لا يقرؤون، أنا ظني أنهم يقرؤون، المشتريات التي عندي في العالم العربي هناك أناس تقرأ وبأعداد كبيرة، ولكن عندما نسأل عن نوعية المقروء، نعم، هذه منطقة أخرى، منطقة بحثية ومعرفية، يمكن أن نسأل فيها، ونستطلع فيها، ونسأل عن أسبابها، عن مسبباتها، الذين قرؤوا (لا تحزن)، لم يقرؤوا الكتاب؛ لأنه فقط كتاب، لكن في اعتقادي أن لديهم كمية من الحزن بداخلهم، فالكتاب يضرب على شيء في داخل هذا الذي اشتراه، أنا وأنت، أنا الكتاب عندي، وقد اشتريته، ذهبت إلى مكتبة العبيكان واشتريته، والله لم أقرأه، بل تصفحته بعض الشيء، وما أغراني على الاستمرار على الإطلاق، قرأت صفحتين من هنا، وصفحات من هناك، لم أمش معه، لكن لو كنت لا سمح الله حزينًا! الإنسان الذي عنده حالة حزن، سيقرأ هذا الكتاب؛ لأنه يستجيب لحاله، فأنت أمام حالة استدعت شراء، أمامك حالات لم تستدع شراء.

١٣ - هناك برمجة من وقت مبكر، ترى أن القراءة خطر. . ! هذا التأثيم، ومشروع التأثيم، ما يزال موجودًا، دعونا نكون واضحين، نحن أحيانًا كآباء نبيح لأنفسنا قراءة كتب، ولكن لا نريد لأبنائنا أن يرونا، وكل أب تجد عنده محفظة يقفلها، ولا يريها لأبنائه، أو ينزع الغلاف حتى لا أحد يراه، لنكن صادقين، هذا موجود، وموجود بكثرة، لكن لا نعلنه، نبيح هذا النفاق، شيء مسموح للكبار، وغير مسموح للصغار، شيء يجب، وشيء لا يجب، شخص عنده مكتبة في القاهرة، من لديه بيت في القاهرة، تجد في القاهرة أو في بيروت مكتبة، وبالرياض مكتبة، مكتبة القاهرة غير مكتبة الرياض، مكتبة بيروت غير مكتبة الرياض، هذه حقائق، لكن هذه تكشف لك عن وضع اجتماعي، عن وضعية نفسية، سيكولوجية، ثقافية، اجتماعية، ويجب أن نعمل بهذه المناطق، لكن مسألة العرق يقولون، زيدان وغيره، يقولون مسألة العرق الآري، والعرق السامي، لكن هذا غير صحيح، كل الممارسات، وكل والثقافات، وكل شيء يثبت أن هذا غير صحيح،

بدليل أن العقول العربية المهاجرة، إلى أوروبا عملت مع الأوروبيين والأمريكان، مثل الأمريكان تمامًا، والأمثلة كثيرة: إدوارد سعيد، ومجدي يعقوب، وأحمد زويل، وحياة سندي، وغادة المطيري؛ أعداد ليس لها أول ولا آخر، أسماء دخلت في الثقافة الغربية متساوية، نحن أيضًا عندما كنا طلابًا في بريطانيا، أو أمريكا، نعمل بطريقة، وعندما نعود إلى بلادنا، نعمل بطريقة أخرى، هنا توجد معوقات كثيرة، ومجال العمل ليس كبيراً بشكل كاف، مجال البحث العلمي والأكاديمي، والجو المعرفي والبحثي ليس كافيًا، اللهم إلا الذي يخلق بيئة علمية داخل منزله.

وما دمنا الآن في حضرة مكتبة، وفي مكان هو مكتبة، وفي مشروع هو تجارب في القراءة، حاولت أن أقدم جزءًا أو أجزاءً من تجربتي في الكتابة. .

مراحل القراءة..![1]

أ. د. سعد بن عبدالرحمن البازعي

أستاذ اللغة الإنجليزية والنقد الأدبي المقارن بجامعة الملك سعود

أود في البدء أن أتوجه بجزيل الشكر لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة، والقائمين على هذا المشروع أو البرنامج المميز، في عرض التجارب القرائية، والتي تخرج هنا إلى حد كبير عن نمطية ما يطرح كثيراً في المؤسسات الثقافية، حيث المحاضرات التقليدية بشكلها المتعارف عليه.

والواقع أن هذا أسقطني في حيرة؛ لأنني تبينت أنني أمام تحد مختلف، بمعنى أنني لست مدعواً هنا لأحاضر بالمعنى الذي اعتدت عليه في الأنديّة والمناسبات، وإنما لأتحدث إلى صفوة من الحضور، وعندما علمت تحديداً أن من الحضور بعض الشباب الذين يودون أن يتحاوروا مع المتحدث في تجاربه القرائية، عندئذ شعرت أن المسألة فيها صعوبة من ناحية، وسهولة من ناحية أخرى!

الصعوبة هي أن الموضوع يستلزم مني خطاباً مختلفاً، والسهولة، أنني متاح لي هنا التخفف من قيود الحديث الرسمي، أو الحديث الذي تتسم به عادة المحاضرات العامة.

إنني لا أدَّعي أنني أعرف بالضبط ماذا سأقول؟ لأنني وضعت رؤوس أقلام، أود أن أنطلق منها في حديث أقرب إلى العفوية منه إلى الخطة المرسومة.

الحقيقة أن الدخول في التجربة القرائية هو دخول في سيرة ذاتية؛ فالصعوبة أيضاً تأتي من هنا، وهو أننا في مثل هذا الحديث نربط المعرفة بتطور المراحل العمرية

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء الثلاثاء ١٥ صفر ١٤٣٠هـ، الموافق ١٠ فبراير ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

للإنسان، وما حققه أو ما لم يحققه في محاولاته لإنجاز شيء ما في عالم الثقافة؛ فالتجربة في القراءة أعادتني إلى المراحل الأولى، أعادتني إلى الطفولة، وأعادتني إلى المراحل الدراسية الأولى. سترون أن محاولتي هي في الربط بين تلك المراحل وما تلاها، وما هو حاضر الآن.

لعلي أدخل، كما اعتدنا نحن الأكاديميين، بمدخل مصطلحي في البداية. كلمة قراءة، هي في الواقع مفهوم، ومفهوم مركّب، ومعقّد، لو أردنا أن ندخل في تفريعات دلالة القراءة، والإخوة الذين يعملون في حقل الثقافة والنقد الأدبي تحديداً سيدركون أننا عندما نقول قراءة فإننا لا نحصر أنفسنا فقط في إطار التعامل مع الكتاب نفتحه ونقرؤه، ولكننا نتعامل مع نصوص الثقافة، بل نصوص الحياة الاجتماعية، بوصفها نصوصًا نقرؤها ونفسرها باستمرار، فنحن نقرأ إشارات المرور، ونقرأ حركات الآخرين، ونقرأ التعبيرات، ونقرأ ما يكتب على شاشة التلفاز، وما نراه في الإنترنت، نقرأ أشياء كثيرة، وكل هذه قراءة.

هذا التطور جاء بفضل نظريات كثيرة في علوم مختلفة، لعل أهمها النظريات السيميائية[١]، التي بثت في هذا المفهوم دلالات لم تكن في الحسبان من قبل. حيث يمكننا أن نقرأ الصور، ونقرأ الرموز، ونقرأ الكاريكاتير، من ضمن الفنون التصويرية التي نقرأها من خلال ما تدل عليه، هناك رسومات كاريكاتيرية مملوءة بالكلام، فتتحول إلى مقالات، لكن هناك رسوماً تعتمد على التشكيل نفسه لتؤدي دلالاتها، فهذه تقرأ كما تقرأ النصوص الأخرى، لكن لاشك أن لها آلياتها المختلفة، والتي يدرسها أهل علم الدلالة. ومع ذلك فإنني سأحصر نفسي في الدلالة الدقيقة، أو المحددة لهذا المشروع، والذي يتوقع من المتحدث أن يكون حديثه محصوراً في القراءة

(١) تُجْمع عدة كتابات ومعاجم لغوية وسيميائية على أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يُعْنَى بدراسة العلامات. ويبدو أن تعريف مونان أوفى هذه التعريفات وأجودها، إذ يحدد السيميولوجيا بأنها: "العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز) التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس".

بمعناها التقليدي، بمعنى أنني لن أدخل في القراءة بهذه المعاني البعيدة والمتشعبة، ولكن إضاءة هذه الأبعاد في اعتقادي أنه مفيد كبداية.

الناحية الثانية التي أود أن أشير إليها هي مسألة المنهج في هذا الحديث؛ فقد سألت نفسي من أين أبدأ؟! أو كيف أعرض تجربتي في القراءة، هل أبدأها بشكل تاريخي؟ أن أتحدث عن مراحل، كما ذكرت قبل قليل، الطفولة ثم مراحل الدراسة: الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي، وهكذا، أم آخذها من حيث نوع القراءة، أي أنواع الكتب، أنواع المقروء، وهذا أيضًا مدخل آخر، فقد لا نكون زمنيين فقط، وإنما موضوعيين، أو حسب الموضوع.

في النهاية رأيت أن أمزج بين الجانبين؛ فأتحدث عن مراحل، وأتحدث عن أنواع المقروء في الوقت نفسه، فوجدت أنني عندما أستعرض مراحل القراءة التي مررت بها، أتحدث أيضًا عن أنواع القراءة؛ لأن كل مرحلة اتسمت بنوع من أنواع القراءة، وأجزم أن كثيرًا منكم، وبعضهم أساتذة، مروا بتجارب مشابهة، وربما تتقاطع مع تجربتي؛ لذلك أتطلع إلى حوار عقب هذا الحديث، فنستمع ربما إلى تجارب بعض الحضور.

مراحل القراءة لو أردت أن أستعرضها معكم، سأتحدث عن أربع مراحل بالنسبة لي، المرحلة الأولى هي التي أسميها قراءة التأسيس، التأسيس بالمعنى الحرفي للكلمة، أي من المرحلة الابتدائية، إلى المرحلة الثانوية، فهذه تبدو لي أنها مرحلة قراءة تأسيسية؛ لأننا في هذه المرحلة نتعلّم أساسيات المعرفة، وهذه المرحلة، تعج بالقراءات، تتعرف على تراثك في هذه المرحلة، وتتعرف على شيء من تراث الآخرين، إذا كنت منفتحًا عليه. في هذه المرحلة تعرفت على موروثي وقرأت قراءات طفولية، وقرأت مترجمات، فهناك خليط لم أعرف تأثيره إلا بعد أن تجاوزت هذه المرحلة، لكنني عندما أعود الآن أجد أنني كنت أقرأ القصص ككل الأطفال، كنت أحيانًا أقرأ أشياء تتاح لي فقط لأنها متاحة، مثل قراءة الأمثال الشعبية لعبدالكريم

الجهيمان[1]، ليست قراءة أطفال، ولكن لأنه كتاب موجود فالتقطته وقرأت منه أشياء، أو أقرأ شعراً شعبيًا، أو من هذا القبيل. لكن أيضاً عشت فترات مصادمة مع المضمون، قرأت نصوصًا، وأنا صغير دهشت كيف تكتب هذه الأشياء، ومن ذلك بعض الأمثال شعبية، وفوجئت بأشياء تكتب وأطلع عليها وأنا طفل، ودهشت لما يكتب مما هو مناف لما تعلمناه في البيوت ومن أخلاقيات ومن قيم، ولكن المصادمة الأكثر حدة مع المضمون جاءت فيما بعد، عند قراءة نصوص شعرية بعيدة عن توجهي، أو روايات ذات مضمون تعجبني، لكن هذا لا يحدث إلا في مراحل متقدمة، من الجامعة فما فوق، عندما تكون قادراً على القراءة النقدية. في المراحل التي قبلها نحن متلقون أكثر مما نحن نقاد، على الأقل هذا بالنسبة لي.

كلنا نحتك بالآخرين ونتعلم، أحد الأشخاص الذين كان يمكن أن أشير إليهم، هو أحد إخوتي الأكبر مني، كان له دور كبير أيضًا في توجيهي لقراءات جادة، كان ذلك في المرحلة الثانوية، ابتداءً من الأول الثانوي، وحتى الثالث الثانوي، قرأت في تلك المرحلة كتبًا قلما يقرأها الآن طلاب المرحلة الثانوية، كتبًا في الفكر المعاصر، روايات "أنا كرنينا" لتولستوي[2]، أشياء لا أعتقد أن كثيراً من الشبان يقرأونها الآن، وأحيانًا أعتقد أنني لم أكن أفهم الذي أقرأ. أذكر أنه وقع في يدي في المرحلة الثانوية كتاب سارتر "الوجود والعدم" ترجمة: عبدالرحمن بدوي[3]، طبعًا لم أفهم شيئًا، ولكن

---

(١) عبدالكريم الجهيمان: صحفي وأديب وباحث ومثقف سعودي، ولد عام ١٩١٢م، وتوفي رحمه الله سنة ٢٠١١م. من أشهر أعماله في البحث الشعبي: موسوعة الأساطير الشعبية في شبه الجزيرة العربية: خمسة أجزاء؛ موسوعة الأمثال الشعبية: عشرة أجزاء.

(٢) هو نيقولا يفينتشي تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م)، روائي و كاتب روسي من عمالقة الروائيين الروس ومن أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ويعده البعض من أعظم الروائيين و من أعماله: الحرب والسلام؛ والبعث؛ وآنا كارنينا..

(٣) عبد الرحمن بدوي (١٩١٧- ٢٠٠٢م)، أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجًا، إذ شملت أعماله أكثر من ١٥٠ كتابًا تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف، ويعدُّه بعض المهتمين بالفلسفة من العرب، أول فيلسوف وجودي مصري، وذلك لشده تأثره ببعض الوجوديين الأوروبيين، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر.

كنت أقول لنفسي: أنا مثقف، وسوف أكون مثقفًا وينبغي أن أقرأ كتباً من هذا النوع، فأقلب الصفحات، واقرأ صفحتين أو أكثر، ثم أعود بخفي حنين، ولكن أعتقد أن المهم هنا هو أنك وضعت نفسك إزاء تحد أمام ثقافة أخرى، الاسم الأجنبي، الفكرة الأجنبية. فيما بعد عدت إلى سارترً[١]، وعدت إلى هايدغر[٢]، ولكن بوعي مختلف، ربما لم أكن لأفعل لولا ذلك الاطلاع المبكر، تلك المصادمة الأولى لهذه القراءات، المرحلة كانت تعج بمؤثرات مختلفة.

تلي هذه المرحلة التأسيسة، مرحلة أسميها قراءة التوجه الفكري والبحثي، بمعنى أنني في هذه المرحلة بدأت أتلمّس إلى أي اتجاه سأسير، إلى أي هدف، بعد أن تكون قراءة التأسيس قد وضعت لبنات تدفع القارئ إلى مجالات معينة، فيكون التوجه الفكري والبحثي في هذه المرحلة، وهي مرحلة الجامعة، مرحلة تتلو مرحلة التأسيس.

المرحلة الثالثة هي التي أسميها قراءة التخصص، وهي قراءة مرحلة الدراسات العليا، فنكون عندئذ قد انطلقنا من العام إلى الخاص، وبدأنا نتوسع في شعبة محددة، وسنكون متخصصين فيها.

طبعًا أتكلم عني وعن أقراني، الذين سلكوا سلك التدريس الجامعي. المرحلة الرابعة هي التي أسميها مرحلة التوسع والتركيز في الوقت نفسه، التوسع في هذا المجال المتخصص، والتركيز أيضًا على قضايا محددة، والمفارقة في هذا المجال هي أن التركيز يؤدي إلى التوسع؛ لأنك كلما ركزت القراءة في مجال معين، نظرية ما، أو

---

(١) جان بول ساتر: (١٩٠٥- ١٩٨٠م)، فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو و ناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي. بدأ حياته العملية أستاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. بعد الحرب أصبح رائد مجموعة من المثقفين في فرنسا. وقد أثرت فلسفته الوجودية، التي نالت شعبية واسعة، على معظم أدباء تلك الفترة. منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤م، تميزت شخصياته بالانفصال عنه وبدت وكأنها موضوعات جدال وحوار أكثر منها مخلوقات بشرية، غير أنه تميز بوضع أبطاله في عالم من ابتكاره.

(٢) مارتن هايدغر: (١٨٨٩-١٩٧٦م)، فيلسوف ألماني، ولد جنوب ألمانيا، وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل. ومن أبرز مؤلفاته: الوجود والزمان؛ دروب مُوصَدة؛ ما الذي يُسَمَّى فكرًا؟؛ المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا؛ نداء الحقيقة؛ في ماهية الحرية الإنسانية؛ نيتشه. . .إلخ.

فرع من فروع العلم، اكتشفت أنه يتسع في اكتشافك لكثرة ما كتب فيه، وكثرة ما أضيف إليه، فيكون الباب ضيقًا في البداية، وما بدأ ضيقًا ودقيقًا ومتخصصًا هو في الواقع واسع سعة المعرفة، فهذه المرحلة الرابعة التي أسميها مرحلة التوسع والتركيز، هي المرحلة الحالية.

في كل مرحلة من هذه المراحل هناك قراءة؛ ويستدعي هذا أن نعود إلى القراءات الأولى. في مرحلة التأسيس كان للوالد - رحمه الله - دور أساس، وهذه مسألة مهمة للتربويين، ومهمة لنا كآباء وبعضنا من صاروا أجداداً.

إننا أمام أنموذج لكيفية تعامل الأب مع ابنه، وأنا أتحدث عن مرحلة مبكرة من مراحل التعليم في هذه البلاد، والدي لم يكن متعلمًا، وإنما كان يقرأ قراءة الناس في تلك المرحلة، أي يستطيع أن يدرك ويفهم النص الذي يقرؤه دون أن يكون قارئاً متوسعاً.

قبل أن أدخل المرحلة الابتدائية، أذكر أنه كان، رحمه الله، يأتي بالصحف ويساعدني على قراءة العناوين الرئيسة. كانت تلك هي علاقتي الأولى بالحرف الذي كان مغلقًا، وكان تدريجيًا ينفتح أمامي قبل أن أدخل المدرسة. أعتقد أن هذا لا يحدث كثيرًا حتى الآن مع أننا في مراحل يفترض أن التعليم أكثر تطوراً، لكنني حظيت بهذه اللفتة من أبي الحنون والواعي في تلك المرحلة المبكرة.

في تلك المرحلة كان لأحد إخواني الأكبر سناً دور أيضاً في تطوير اهتمامي بالقراءة. أذكر أنني في تلك المرحلة كنت ألعب كبقية الصبية مع أختي وكنا نلعب بأشياء طفولية عادية. وكنت في السنة الثانية الابتدائية، وكان أخي الأكبر يريد أن يفضّ مشكلة بيني وبين أختي عندما اختصمنا على بعض أشياء الأطفال، قال: يا سعد، لماذا لا تكون لديك مكتبة؟!

طبعًا الفكرة كانت جديدة بالنسبة للمكتبة، المفهوم أصلاً غير وارد، فأتاني بصندوق ووضعنا الدفاتر فيه، وشعرت أنني أمام مكتبة. هذه كانت أيضًا خطة

تأسيسية بالنسبة لي؛ لأنني منذ ذلك الحين إلى اليوم وأنا لدي مكتبة، ولكن البداية كانت مبكّرة. وأذكر أننا حينما كنا نسافر من منطقة لأخرى لأسباب تتعلّق بعمل والدي، كنت أنقل مكتبتي معي، أو أطلب إليهم أن يشتروا لي طاولة، ويكون لدي مكتبة في البيت، فهذا أدّى إلى أن أشعر بالتميز على بعض أقراني ممن لم يكونوا يهتمون بالكتب والقراءة! فيكفي أن تقول والدتي: سعد عنده مكتبة! كان لهذا تأثير نفسي عليّ، وأعتقد أن حاجة الطفل في هذه المرحلة إلى التميز ورغبته في أن يكون أفضل من غيره، هاجس يدفعه الاستمرار.

وطبيعي أن يكون حب الاستطلاع، أو حب المعرفة في هذه المرحلة هو الهاجس الأول أو الرئيس، وإنما هو الدافع الطفولي، الذي يكبر معنا، وهو ليس طفوليًا فقط، : نظل في عالم من التنافس والرغبة المستمرة في التميز على غيرنا بما نقرؤه، ولكن في تلك المرحلة الطفولية أعتقد أن هذا كان له دور كبير.

في هذه المرحلة أيضًا والتي هي مرحلة المتوسطة والثانوية، أذكر أنني تعرفت على أعمال أدبية عالمية، روايات مترجمة، كتب بعضها لم أكن أفهمه، ولكنني أحاول أن أقرأ، الروايات كانت وما تزال أقرب إلى القراءة السهلة والممتعة؛ فتعرفت على أسماء ظلت محفورة في الذاكرة، وعدت إليها فيما بعد عودة الباحث المدقق أو الناقد، الرواية الإنجليزية، والرواية الفرنسية، والرواية الروسية؛ كنا نقرأ نتفًا من هذه وتلك، وكانت متيسرة لمن عاش تلك المرحلة، ومتيسرة في مدينة الرياض، هنا في البطحاء، وشارع الوزير، تجدها على الأرصفة وكانت إلى جانبها، كما يذكر بعض الزملاء، كتب منعت فيما بعد؛ لأن الناس لم تكن تدرك قيمة أو محتوى تلك الكتب!

أذكر في هذا السياق أن مكتبة واحدة أدّت دورًا أساسًا بالنسبة لي لقد عشت جزءًا وإن كان ضئيلاً من طفولتي في منطقة الجوف(انتسب من حيث الأب إلى عائلة من القصيم وليس من الجوف). كان والدي، رحمه الله، يعمل هناك، وعندما كنت في السنة الثانية المتوسطة، افتتحت مكتبة عامة في مدينة سكاكا بالجوف، وأعتقد أنها من

أوائل المكتبات العامة في المملكة. في ذلك الحين لم تكن هناك مكتبات عامة بالشكل المعروف، كانت عبارة عن دكان طويل نسبيًا، أو هو أصلاً دكان وحُوِّل إلى مكتبة.

كنا نذهب نحن الصغار في الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العمر إلى هناك نطالع ما هو موجود، لم نكن نعرف قيمة الكتب، ولكن العناوين التي نطالعها، شكل الكتاب، شكل المجلة، هذا كله كان له تأثير، تعرّفت على مجلة العربي في تلك المرحلة، وتعرفت على كتب من عناوينها، مثل كتاب الأغاني[1]، وأذكر أنني دهشت أن الأغاني عنوان لكتاب، نعرف أن الأغاني شيء نسمعه في الراديو، لكن ها أنا أمام المعرفة في كتاب من عشرين مجلدًا اسمه "الأغاني" لكن علاقتي بالعربي كانت علاقة في غاية الأهمية، وأذكر هنا أنني قرأت في أحد أعداد تلك المجلة في تلك المرحلة، مقالة، أو بالأحرى ترجمة لقصيدة من الشعر الإنجليزي، قصيدة مرت عليّ مرور الكرام آنذاك، أو أنني مررت عليها مرور الكرام، مع أن عنوانها كان مغريًا، القصيدة طفولية، وتتحدث عن رجل يسأل طفلة عن عمرها، وعدد إخوانها وأخواتها، فتجيبه بقولها نحن سبعة ليتضح بعد ذلك أنهم ستة ولكنها تعد أخاً لها متوفى وتصر علي أنه ينبغي أن يحسب.

أعتقد أن المراحل الأولى هي المراحل التي يتبلور فيها التوجّه الفكري، حيث تتضح الصورة أكثر، لكن لا أعتقد أن هذا يثبت في المرحلة الثانوية، إلا في حالات نادرة، المرحلة الثانوية هي المرحلة التي تبدأ فيها الأمور تتضح لكن التأسيس يكون قد سبق. أنا شخصيًا بدأت أكتشف اهتماماتي الأدبية في هذه المرحلة، عندما دخلنا القسم الأدبي في ذاك الوقت، وكان لبعض معلمي تأثير قوي، نعم بعض المعلمين

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: من أهم الكتب الأدبية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري. وهو كتاب ضخم حفل بأخبار الشعراء والأدباء والخلفاء والولاة، وصور الكثير من جوانب التهتك في حياة الشعراء وأهل الفن والطرب. وقد جمع فيه ما بين المقطوعات الشعرية والمواقف القصصية النثرية، في توليفة أساسها الفرد الذي يتحدث عنه، ويسجل أبرز ما يدور حوله؛ ما يجعله من أهم كتب التراجم والسير والأخبار، ولكنه من جانب آخر ينقل لنا بعض وجوه الحياة العربية بكل ما فيها من قصص وحكايات وأمثال وخطب، مما يكشف بعض الجوانب النفسية لهذه الحياة، وللعرب قديمًا.

كان لهم دور كبير في هذا المجال. وأذكر في هذا السياق، أستاذًا سودانيًا، كان يعلم اللغة العربية في اليمامة الثانوية، التي كانت تقف شامخة بالقرب من هنا، بعض الأساتذة يترك أثرًا كبيرًا في حياتنا، وأعتقد أن كلنا يذكر أساتذة من هذا النوع، فالتوجه اتضح في هذه المرحلة.

عندما دخلت الجامعة، كانت هناك عوامل كثيرة تدفعني إلى قسم اللغة الإنجليزية، وأذكر أن هذه القراءة كان لها دور في دفعي إلى هذا القسم؛ لأن تلك القصيدة كانت موجودة في ذاكرتي. في تلك المرحلة أيضًا كنت قد بدأت أتعرف على النقد الأدبي الحديث، وأقرأ لبعض الشعراء الرومانسيين من العرب مثل: إبراهيم ناجي(١)، وعلي محمود طه(٢)، وغيرهما، ممن اكتشفت أنهم أيضًا تعرفوا على الآداب الأجنبية. اجتمعت هذه العوامل لتدفع بي إلى هذا القسم، ولأن أدخل في علاقة لم تنته حتى اليوم مع الثقافة الغربية، وهو ما أضربه مثلاً لطلابي: كيف أن مقالة واحدة تستطيع أن تؤثر في مسيرة إنسان؟ في المرحلة نفسها تقريبًا بدأت أتعرف على الأدب العربي الحديث، ليس فقط الشعر - كما أضفت قبل قليل - وإنما بدأت أقرأ له: طه حسين(٣)، وعباس محمود العقاد(٤) و نجيب محفوظ(٥)، بالإضافة إلى الترجمات من الأدب العالمية. طه حسين، والعقاد جاءا في البداية، وأعجبت كثيراً بأسلوب طه حسين، وتأثرت أكثر بالعقاد، وأذكر أن أول مقالة كتبتها لمجلة طلابية في كلية الآداب، وكنت في السنة الثالثة، حاكيت فيها أسلوب العقاد في الكتابة، وكنت أشعر وأنا أكتب أنني أتقمص أسلوب العقاد، ومع إدراكي أن أسلوب العقاد صعب

(١) سبق التعريف به.

(٢) علي محمود طه (١٩٠٢-١٩٤٩م) شاعر النيل، من أعلام مدرسة أبولو التي أرست أسس الرومانسية في الشعر العربي، من مواليد مدينة المنصورة. من أشهر دواوينه: الملاح التائه؛ ميلاد الشاعر؛ الوحي الخالد.؛ ليالي الملاح التائه؛ أرواح وأشباح؛ شرق وغرب؛ زهر وخمر؛ أغنية الرياح الأربع؛ الشوق العائد، وغيرها.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) سبق التعريف به.

(٥) نجيب محفوظ: (١٩١١-٢٠٠٦م)، روائي مصري حائز على جائزة نوبل في الأدب. كتب نجيب محفوظ منذ بداية الأربعينيات واستمر حتى ٢٠٠٤، تدور أحداث جميع رواياته في مصر، وتظهر فيها ثيمة متكررة هي الحارة التي تعادل العالم.

فقد كنت أشعر أنني أمام هذا الكاتب الكبير، أستفيد من أسلوبه في الكتابة، وكان للعقاد تأثير من ناحية أنه ممن احتفوا بالكتب والقراءة، فله كتب كما تعلمون عن الكتب، ولعله من القلة الذين كتبوا عن الكتب، فله كتابان ضخمان حول القراءة، حول ما قرأ، مطالعات هذين الكتابين مع غيرهما، كانا بحد ذاته مفتاحًا لثقافات أخرى ولقراءات أخرى، والعقاد كما هم مثقفو تلك المرحلة كان مهتمًا بالتلخيص والتعريف، كان يمارس ما يعد في ذلك الحين دورًا تنويريًا، بمعنى أنه كان يريد أن يشيع المعرفة بين الناس، فيقول: هذا جوته، وهذا شكسبير، معروفاً وشارحاً، كتابة لم يكن يقصد بها غوته الإضافة لما ألف مبتدئ حول هؤلاء الكتاب، بقدر ما هو التعريف بهم في ثقافة لا تعرفهم، فهذا الهاجس التنويري أو التعريفي كان مهمًا، وكان مفيدًا لي كقارئ متوسط، ولا أقول مبتدأ في تلك المرحلة، فكنت أعد نفسي قارئًا متوسطًا، في مرحلة أستطيع أن أستوعب فيها صعوبة الأساليب التي نربطها بكتاب كالعقاد. في هذه المرحلة أيضًا، وأنا في الجامعة، اكتشفت شيئًا كان له أثر كبير فيما بعد. أحد أساتذتنا وهو الدكتور أحمد خالد البدلي[1]، أطال الله عمره، إذ كان يدرسنا نصوصًا في السنة الأولى بالكلية، وكما تعرفون فإن الطالب حينما يجلس مع أستاذه يكون شديد الإعجاب بأي شيء يقوله الأستاذ، خاصة ونحن في جامعة، وهذا دكتور، طبعًا هذه النظرة تعلي من شأن الأستاذ، حتى في هذه المرحلة التي تعد متقدمة. الدكتور البدلي كان يدرس لنا أدبًا عربيًا وأدبًا قديمًا، لكنني أذكر أنني خرجت من الكلية ثم مشيت في الشارع وكانت سيارة الدكتور البدلي تقف على الرصيف، فلمحت تحت الزجاج الأمامي ديوان شعر، عنوانه: كائنات مملكة الليل،

(١) أول رئيس لقسم الإعلام بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، عندما أنشئ ذلك القسم عام ١٣٩٢هـ. تولَّى رئاسة قسم اللغة العربية بالجامعة نفسها، من عام ١٣٩٣هـ حتى عام ١٣٩٥هـ. عين مديراً لمعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها من ١٤٠٢هـ حتى ١٤٠٥هـ. حصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام ١٤٠٢هـ. ترجم كتاب (إيران في العهد التجاري) من الفارسية إلى العربية؛ ترجم قصة (البومة العمياء) للكاتب الإيراني الشهير صادق هدايت من الفارسية إلى العربية (لازالت مخطوطة)؛ ترجم رحلة ناصر خسْرو القبادياني من الفارسية إلى العربية، وطبعت ضمن نشريات جامعة الملك سعود عام ١٤٠٢هـ. ألَّف كتاب "دراسة بعض الترجمات العربية لرباعيات الخيام" (لازال مخطوطاً). عُيِّن محرراً للصفحة الأدبية بجريدة "الجزيرة" التي كانت تصدر أسبوعية "كل ثلاثاء" بالرياض من عام ١٣٨٩هـ حتى عام ١٣٩٠هـ.

للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي[١]، العنوان: كان غريبًا، لأنه ليس من الشعر الذي ندرسه، أو مما نقرأه عادة، لماذا يقرأ أستاذ هذا الديوان بالذات؟ لم أكن أعلم أنني سأكتب الكثير عن حجازي تحديداً، وعن غيره من الشعراء العرب المحدثين، وأن جزءاً من نتاجي الثقافي والنقدي سيتجه إلى هذا المجال. مثل ما حدث مع مجلة العربي، إنني هنا ألمس نقطة مفصلية في تطور القراءة لدي، وتطور الاهتمامات من خلال هذه الاكتشافات، أن تكتشف ديوانًا، أو عنوان مقالة، أويجد لأبيه أو أخيه كتابًا ملقى، فيطالعه ويؤثر هذا فيه بطريقة أكبر مما تؤثر في من اقتنى الكتاب أولاً.

أعتقد أن الأمثلة كثيرة ويمكننا أن نستعرض منها الكثير، في مرحلة تالية أسميتها مرحلة التخصص، واتسمت بما أسمية قراءة التخصص، وهي مرحلة الدراسات العليا، هذه تمت في الولايات المتحدة، وكنت أدرس للماجستير ثم للدكتوراة. في هذه المرحلة أيضًا كانت هناك اكتشافات أخرى، وتطور تجاه عوالم جديدة بالنسبة لي. بحكم الدراسة الغربية كان علي أن أقرأ في الفكر الغربي، وأن أقرأ نقدًا، وأن أقرأ نظريات، قرأت في الآداب الأوروبية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية طبعًا، ولكنني في تلك المرحلة بالذات وخاصة في مرحلة الدكتوراة، اكتشفت كاتبين، أو مفكرين مهمين كان لهما أثر كبير على عملي ونتاجي في المراحل التالية، الأول هو: إدوارد سعيد[٢]،

---

(١) شاعر وناقد مصري، ولد عام ١٩٣٥م بمدينة تلا محافظة المنوفية بمصر. أسهم في العديد من المؤتمرات الأدبية في كثير من العواصم العربية، ويعد من رواد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر. ترجمت مختارات من قصائده إلى الفرنسية والإنجليزية والروسية والإسبانية والإيطالية والألمانية. من أبرز دواوينه الشعرية: مدينة بلا قلب؛ أوراس؛ لم يبق إلا الاعتراف؛ مرثية العمر الجميل؛ كائنات مملكة الليل؛ أشجار الاسمنت. من مؤلفاته: محمد وهؤلاء؛ إبراهيم ناجي؛ خليل مطران؛ حديث الثلاثاء؛ الشعر رفيقي.. وغيرها.

(٢) إدوارد سعيد: (١٩٣٥-٢٠٠٣م) أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا، الكاتب والناقد والأكاديمي الفلسطيني الأمريكي المعروف. بالإضافة إلى كونه ناقدًا أدبيًا مرموقًا، فإن اهتماماته السياسية والمعرفية متعددة واسعة تتمحور حول القضية الفلسطينية والدفاع عن شرعية الثقافة والهويّة الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني. كما تتركز اهتماماته والموضوعات التي يتناولها على العلاقة بين القوة والهيمنة الثقافية الغربية من ناحية، وتشكيل رؤية الناس للعالم وللقضايا من ناحية أخرى. ويوضح إدوارد سعيد هذه المسألة بأمثلة عديدة وبتفاصيل تاريخية في مسألة الصهيونية، وترعرعها في الغرب، ونظرة الغرب إلى العرب والإسلام والمسلمين وثقافات العالم الأخرى. ويشرح إدوارد سعيد كيف أن الإعلام الغربي والخبراء وصنّاع السياسة الغربية والإمبريالية الثقافية الغربية تتضافر كلها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب غربي منحاز ثقافيًا إلى الغرب ومصالحه.

وقد عرفته عام ١٩٧٩م، وكنت أتهيأ لمرحلة الدكتوراة، وكان كتابه "الاستشراق" وهو كتاب معروف، وأحدث ضجيجًا في ساحات الفكر الأوروبي والأمريكي، ذكره لي أحد الأساتذة قال: إن إدوارد سعيد وهو عربي منكم، له كتاب كذا وكذا، فحصلت على الكتاب، وما أن قرأته حتى وجدت أنني أمام ضالتي في التفكير وفي التنظير؛ لأنه ساعدني في بلورة أطروحة الدكتوراه التي كتبتها في السنوات التالية، المفكر الآخر هو مفكر استفاد منه إدوارد سعيد نفسه، وهو المفكر الفرنسي ميشيل فوكو[١]، كان فوكو له تأثير كبير في منهجية القراءة لدي وأفدت من الثقافة الهائلة التي وجدتها في ما اطلعت عليه من أعماله.

إني أستعيد هذه المراحل لأوضح النقلات التي حدثت أثناءها، لكنني أيضًا لا أريد أن أغفل جانبًا آخرًا مهمًا في تلك المرحلة بالذات، وهو أنني وأنا أجد نفسي بين أجانب طلابًا وأساتذة، كنت أنحاز كثيرًا للثقافة العربية، ولو لم أنحز لدفعت إليها دفعاً، لأن السؤال كان يتكرر، ماذا بشأن ثقافتكم؟ ماذا بشأن شعركم؟ ماذا لديكم؟ شخصيًا لم أكن منقطعًا عن الموروث العربي الإسلامي حتى قبل أن أذهب للولايات المتحدة، لكن وجودي في هذه البيئة الغربية والغريبة، كان حافزًا لأن ألتصق أكثر بهذا الموروث، وأذكر أنني في إحدى المواد المقررة طلب منا أن نقدم قراءات نقدية، فاقترحت أن أقدم قراءة لقصيدة البحتري "السينية" فعرفت بها وبما يفعله الشاعر، خاصة أن قصيدة البحتري، قصيدة فيها ذهاب إلى ثقافة الآخر، وهي من القصائد النادرة في الثقافة العربية التي يتجه فيها البدوي العربي إلى ثقافة أخرى وهي ثقافة فارس، ويجول في إيوان كسرى ويثني عليه، وأذكر أن الطلاب والأستاذ طلبوا مني أن أقرأها بالعربية، فقرأتها، وكما تعرفون أن سينية البحتري تضج بالسين فيحدث

---

(١) ميشيل فوكو: (١٩٢٦ - ١٩٨٤) فيلسوف فرنسي، يعد من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه "تاريخ الجنون"، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح "أركيولوجية المعرفة". أرّخ للجنس أيضًا في كتابة "تاريخ الجنسانية".

جلبة جميلة، فأعجبوا بالصوت - وإن لم يفهموا شيئًا - وحاولت أن أترجم بعض النصوص، لكني أضرب بهذا مثالاً على عملية التواصل بين الثقافتين، فظللت مشدودًا إلى الخلفيتين، الخلفية العربية الإسلامية، وهي الأساس طبعًا، والثقافة الغربية التي كانت تنمو وتأخذ مني الكثير، وأعتقد أنه كان يعتمل في داخلي أو تعتمل في داخلي مشكلة الهوية في تلك المرحلة، كنت أجد نفسي أغترب ثقافيًا، كلما توغلت مع فوكو وأمثاله، والشعراء الإنجليز والأمريكان، فأشعر بالغربة، أحاول قدر الإمكان أن أستعيد هذا الماضي، وكانت بالقرب مني في ولاية إنديانا جامعة إنديانا وبها مكتبة ضخمة باللغة العربية وضعت طابق كبير تجد فيه كل الشعر العربي تقريبًا، وكثيراً من الموروث العربي، الشعر العربي الحديث، الفكر والثقافة العربية الإسلامية، فكنت أذهب إليها بين الحين والآخر، لأستعير كتبًا، أو أطالع، أو أنسخ، وهذه أشياء لا علاقة لها بالدراسة، ولكن أعتقد أن الهاجس الثقافي، والقلق المعرفي كان دافعًا لي، لم أرد يومًا من الأيام أن أكون أستاذًا للأدب الإنجليزي فحسب كان هذا مقلقًا بالنسبة لي أن أكون أستاذ أدب إنجليزي ليس أكثر، كان بالنسبة لي من المهم جدًا أن أحتفظ بالهوية العربية، ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا بالاستمرار بمد الجسور مع هذه المكتبات وبالقراءة، ووجدت نفسي تدريجيًا أكتب دراسات مقارنة، أقدمها في مواد مختلفة، مرة أقارن هذا بذاك، هذه القصيدة بتلك، واستقرئ الموضوعات العربية في الآداب الغربية حتى استمر معي هذا إلى اليوم.

هذه المرحلة اتسمت بالتعرف إلى الكثير في علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، وكانت هذه القراءات مطلوبة، إما دراسيًا، لأن المواد الدراسية كانت تقتضي أن نقرأ، أو أنها كانت تتم بشكل شخصي لزيادة المعرفة. المرحلة الحالية أسميتها مرحلة التوسع، هذه المرحلة عندما أتأملها الآن وقد تأملتها كثيرًا، أجد أنها مرحلة مسكونة بهاجس التأليف، والقراءة والزملاء المؤلفون معنا هنا يعرفون ربما ما أشير إليه، أنك عندما يكون لديك شيء من الرصيد في القراءة والمعرفة، لابد أن

تشعر أنك مدين للآخرين، وأنك مطالب بتقديم هذا الرصيد، وأنه ليس لك وحدك، فعليك أن تشرك به الآخرين، وأن تستمع إلى رأيهم فيه، والتأليف هاجس مهم بدأ معي منذ عدت من الولايات المتحدة في أواسط ١٤٠٤هـ أو أواسط الثمانينيات الميلادية، واستمر معي، وبدأت الكتب تظهر منذ ذلك الحين، وكان أولها: "ثقافة الصحراء"، عام ١٤٠٠هـ. القراءة في هذه المرحلة قراءة متخصصة، قراءة تتجه إلى قضايا معينة، ولكنها أيضًا تهدف إلى الخروج بشيء من هذه القراءة، من النادر أن أقرأ للمتعة فقط، أقرأ روايات أو شعرًا أو صحفًا للمتعة، ولكن القراءة الأساسية، القراءة التي أسميها قراءة جادة، هي قراءة مقرونة بهاجس التأليف، بهاجس كتابة بحث، أو كتابة ورقة، أو تأليف كتاب، بحيث إن القراءات في هذه الحالة تتمحور في اتجاه قضية معينة، فتكون القضية هي الدافع إلى التوسع، فلو أخذنا مثلاً كتاب "المكون اليهودي في الحضارة الغربية وهو كتاب صدر العام الماضي(٢٠٠٨م)، هذا كتاب جاء نتيجة سنين من العمل، والتفكير فيه بدأ قديمًا، ولكن العمل الفعلي بدأ قبل صدوره بخمسة أعوام، كل فصل من هذا الكتاب، كان يستدعي قراءات محددة، ولكن تنامي الفصول، لم يكن دائمًا تلقائيًا، فكنت مثلاً أريد أن أكتب شيئًا عن تأثير اليهود في الحضارة الغربية، أهميتهم، دورهم، كنت أعرف فرويد، و كارل ماركس، و غيرهما من المفكرين، لكنني لا أعرف شعراء، أو روائيين، ولأنني أريد أن أقدم صورة متكاملة عن هذه الثقافة، أو هذا المكون، أتجه بالقراءة إلى هذا المجال الإبداعي، فأقرأ في الشعر الذي كتبه يهود، أو أقرأ في الروايات التي كتبها يهود، فتكون القراءة موجهة لهذا الهاجس البحثي التأليفي في النهاية. إن من طبيعة القراءة أنها تقودك إلى أشياء أخرى، أو تثني عزمك عن أشياء كنت قد عزمت عليها، فيها مراوحة مجيء وذهاب، لكن في نهاية الأمر المحصول وهو ناتج عن هذه الرغبة في تكوين معرفة في مجال محدد، لذلك أنا أسميها توسعًا وتركيزًا في الوقت نفسه، فأنت تركز على مجال، وتتوسع منه في الوقت نفسه.

إلى جانب هذا، قرأت قراءات كثيرة بأمل تأليف كتب معينة، ثم لم أؤلفها، ولا تزال لدي أضابيرها انظر إليها بحسرة وألم، لأن الزمن يتقادم، ولم تنتج هذه الكتب، وتحولت إلى ركام من المعرفة، فليست كل محاولة للقراءة بهاجس التأليف ناجحة، بمعنى أنك قد تكون مدفوعًا لهذه القراءة بدافع عملي، مثل ما يفعل طلاب الماجستير والدكتوراه، قراءاتهم موجهة لهذا الجانب أو ذلك، لكن أحيانًا ينبغي الاعتراف أننا لا نصل إلى شيء، وأعتقد أن بعض المؤلفات مصيبتها أن أصحابها يصرون على نشرها أو تأليفها، مع أنه كان ينبغي ألا تؤلف أصلاً.

أخيرًا أود الإشارة إلى تقنيات القراءة، أساليبها وطرقها . لا شك أن هناك طرقًا كثيرة، وكل منا يمكن أن يفيد الآخر في هذا المجال، لكن لابد من التمييز بين أنواع القراءة، لأن كل نوع يستدعي طريقة مختلفة، وكلكم درستم وتعرفون أنه عندما تقرأ للامتحان غير أن تقرأ للتسلية، لأنه عندما تقرأ للامتحان تجد أنك تقف عند كل كلمة وتضع خطوطًا، وتهمش وتلخص، لأنك أمام امتحان، القراءة الجادة هي هذه القراءة، والذين يحققون قراءات جادة معمقة، هم الذين يقرؤون بهذه الطريقة، هم الذين يقرؤون كما لو كانوا ذاهبين إلى الامتحان، وليس للمتعة والتسلية. وفي هذه السياق قرأت قراءات جادة كتحليل الكتاب تلخيصًا وتهميشًا وخطوطًا وإحالات. أن هناك وقراءات عابرة. أحيانًا الكتاب نفسه يستدعي هذا أو ذاك، وأحيانًا اهتمامك أنت يستدعي هذا، وأحيانًا الدوافع التي تدفعك للقراءة أيضًا تضطرك إلى هذا. القراءة كما أعرفها، القراءة الجادة تحتاج إلى هوامش وإلى تلخيص؛ ولذلك تأخذ وقتًا طويلاً، وأنا من المؤمنين أن القراءة الجادة هي قراءة بطيئة، قراءة متأنية. هناك القراءة السريعة لمن يجيد تقنياتها وهي معروفة ولكنني لم أتعلمها. قراءتي عندما تكون جادة قراءة بطيئة، تأخذ مني وقتًا طويلاً، ولكنني أعزي نفسي بالمحصول، فالمحصول يكون جيدًا وفي الغالب أحتفظ به، الكتاب لا يصبح ذاكرة منسية، يصبح ذاكرة محفوظة، عندما تأخذ الكتاب تجد أفكارك موجودة على الهامش، تجد أفكار

المؤلف ملخصة، فلا تحتاج أن تتذكر ماذا قال؟ هذا النوع من القراءة هو الذي استفدت منه، وكثيراً ما غلبني الكسل فلم أفعله، مع الأسف. أحيانًا يكون الإنسان لديه همة وجد ونشاط ويفعل هذا، يقرأ كما لو كان ذاهبًا للامتحان، وأحيانًا أو في الغالب لا يحصل هذا.

وهناك العلاقة بين القراءة المتنوعة والخط الرئيس للقارئ. أعتقد أن معظمنا لديه خط رئيس، قد يكون في علم النفس، أو علم الاجتماع، أو في العلوم الإسلامية، أو في أي مجال، لكن قراءته تتفرع، كما يفترض من هذا الخط الرئيس أن تنقده حينًا وترفضه حينًا، وتضيف إليه حينًا، ولكن هذا يشكل بنية ثقافية لدى كثير من الناس، أنا لست من المؤمنين بالقراءة في كل شيء. لا أعتقد أن هذه الطريقة مفيدة، أو منجزة، بل إنها توجد شتاتًا معرفيًا، ليس له رابط، وليس له قيمة، ولا يؤدي إلى نتيجة، قد يكون هناك شيء من المعلومات التي نذكرها في المجالس لكنها لا تبني عمقاً معرفياً.

أردت أن أشرككم معي في جملة مراحل وقضايا وأحداث، الهدف الأساس هو أن تكون هذه التجربة محل نقاش، وربما نكتشف فيها نقاط ضعف ونقاط قوة، لكن أيضًا، وأعتقد أن هذا هدف مكتبة الملك عبدالعزيز العامة عندما تطرح هذا المشروع، الهدف هو أننا من خلال مثل هذه التجارب، نلقي ضوءًا داخليًا على المشروعات الثقافية كيف تمت، والأشخاص أنفسهم كيف يتطورون؟ ولذلك أعتقد أنني أول المستفيدين، بل ربما المستفيد الوحيد من هذا الحديث، لأنني عشت معه أيامًا، اضطررت أثناءها إلى أن أستعيد بعض ما نسيت، أتأمل في بعض تلك اللحظات المهمة في حياتي الشخصية، وتفاؤلي مع الكتاب في المراحل المختلفة، أعرف أن هناك أسئلة تقليدية في هذا المجال مثل: ما هو الكتاب الذي أثر فيك؟ ويمكننا الحديث حول مثل هذه الأمور، ولكن أعتقد أن هذا ليس الأهم. إنما المهم هو جملة هذه المؤثرات، فباستثناء "القرآن الكريم"، من الصعب أن أقدم كتابًا واحدًا، وأقول عنه الأكبر تأثيرًا، ولكن كانت هناك كتب تأسيسية، ومفصلية، بالتأكيد، ذكرت بعضها أثناء الحديث، وربما يتسع المجال للتحدث عن بعضها الآخر.

أعتقد أن المؤثرات الحديثة مثل الإنترنت، هي دائمًا مثل الكتب، أسلحة ذات حدين، وكنت أود أن أقول في هذا السياق عن الكتب: إن علاقتنا مع الكتب، هي علاقة مثالية في الغالب، فبعض الكتب لا تساوي الورق الذي كتبت عليه، ليس كل الكتب جديرة بالقراءة، وهناك كتب ليست فقط جديرة، وإنما ضارة، الكتب ليست دائمًا الصديق المثالي، كما يقول المتنبي، خير جليس في الزمان كتاب، المهم ما هو الكتاب؟ قد لا يكون خير جليس، هذا شيء نكتشفه مع الزمن حيث تضيع وقتك في قراءة شيء، أو تكتشف شيئًا لا ينبغي أن تكتشفه به ويصدق على الإنترنت الشيء نفسه، فهي مملوءة بالمعرفة، ولكن المعرفة بقدر ما تكون مفيدة ،وقد تكون مضللة، فأنا أعتقد أن المعيار في هذه الحالة هو التوجيه، وترسيخ القيم التي توجه القارئ، سواء كان طفلاً أو أكبر من ذلك.

أعتقد أن القراءة تصبح ممتعة عندما تكون قريبة منا، عندما نقرأ في شيء نحبه أصلاً، فتصبح مفيدة وممتعة في آن واحد، لكن لابد من أن نوطّن أنفسنا على أن هناك قراءات ليست ممتعة ولكنها ضرورية، حتى في المراحل المتقدمة من أعمارنا، لو استسلمنا للمتعة لما استفدنا كثيراً، ومع ذلك فإن الإنسان يصعب عليه أن يكون جاداً دائمًا، والتوفيق بينهما تحد تصعب مواجهته.

علاقتي بالمكتبة إذن، كما ذكرت هي علاقة حميمة ومنذ الطفولة، ولا تزال مستمرة حتى اليوم، ما تعلمته من تلك العلاقة شيئان: أن هناك كتبًا تأسيسية يجب أن تكون في كل مكتبة، وأننا نشتري بعض الكتب لا لنقرأها مباشرة، فليس من الضروري أن نشتري الكتاب لنقرأه، بعض الكتب نحتاجها ونقتنيها؛ لأننا نتوقع أننا سنعود إليها. الكم لا ينبغي أن يطغى على الكيف، القضية ليست بناء رفوف طويلة، خمسة عشر ألف كتاب، أو عشرون ألف كتاب، أعتقد أن بعض الكتب مكانها المكتبات العامة، ومكتبة الجامعة، وليس في المنزل بالضرورة؛ فلذلك تعلمت ولكن متأخرًا أن هناك كتبًا أريد التخلّص منها؛ لأنني أواجه مشكلة كبيرة في هذا السياق،

معظم الكتب التي تمتلئ بها مكتبي تأتي إهداءات، ومما هو حصاد المحاضرات والزيارات، ولكن ينبغي التركيز على الكيف بدلاً من الكم.

أعتقد أن هناك مساحة هائلة من النقص في الثقافة العربية المعاصرة وهذا هو الهاجس الذي يدفع بكثير منا للتأليف بالعربية، أوالكتابة للثقافة العربية. أنه شعورنا بأننا مدينون لهذه الثقافة قبل أي ثقافة أخرى، وكأن هذه الثقافة بحالة نمو وتطور، مع أننا نأتي بما تعلّمناه في الغرب لنضخه في هذه الثقافة، في محاولة لدعمها بأي شكل من الأشكال.

من ذكرياتي المبكرة عن القراءة أذكر في المرحلة المتوسطة كان مقرراً علينا رواية عنوانها (بلال) لعبدالحميد جودة السحار[1]، وأذكر أنني كنت أقرأ وأعجب المدرس بقراءتي، فطلب إليّ أن أقرأ في كل مرة، وكنت بالطبع مزهواً بذلك، مزهواً إلى حد لا يصدق، حتى إنني حفظت الأسطر الأول من بدايات هذه الرواية، لكني أعتقد أن هذه الحالة عمقت العلاقة بالكتاب، فأصبح محبوبًا بالنسبة لي، فلم يكن مجرد موضوع ندرسه للامتحان آخر العام، وإنما هو شيء حبيب وحميم يأتي منه الإعجاب والتقدير، بالنسبة للقراءة الحديثة، معظم الشبان والشابات يقرؤون من خلال الإنترنت، كما ذكرت قبل قليل. هناك من يقرأ كتبًا من خلال الإنترنت، وكتبًا جادة ومهمة، وهناك من يقرأ أشياء إن لم تضر لا تنفع، والإنترنت مليئة بأشياء أعتقد أنها أمشاج، خليط، أعطيكم مثالاً: الموسوعة الإنترنتية "وكيبيديا" وهي الموسوعة الوحيدة المتاحة في الإنترنت والتي يمكن لأي شخص أن يسهم فيها، أو يحررها، فيضيف إليها، شيء مدهش، الطلاب يذهبون إليها للحصول على المعلومات،

(١) عبد الحميد جودة السحار: (١٩١٣-١٩٧٤م)، أديب وروائي وكاتب قصة وسيناريست مصري من مواليد القاهرة. بدأ سيرته الأدبية مثل غالبية أبناء جيله بكتابة القصة القصيرة من خلال مجلتين بارزتين، هما: "الرسالة"؛ و"الثقافة". ثم اتجه بعد ذلك إلى كتابة القصص التاريخية فكتب قصته الأولى "أحمس بطل الاستقلال ثم كتب روايته التاريخية الثانية "أميرة قرطبة". اتجه إلى كتابة الإسلاميات فكتب أبو ذر الغفاري - بلال مؤذن الرسول - سعد بن أبي وقاص - أبناء أبو بكر - محمد رسول الله والذين معه الذي صدر في ٢٠ جزءا وعرض في التليفزيون تحت اسم (لا إله إلا الله) ونال من خلاله شهرة واسعة.

وأقول لهم، لا تأتوني بمعلومات من وكيبيديا لأنها ليست موثوقة مئة بالمئة، المشكلة أن ما يوجد على الإنترنت ليس له مرجعية مثل مرجعية الكتاب، لا نعرف المؤلف، لا نعرف الناشر من هو. معلومات منثورة في الهواء، بعضها خطأ وبعضها صواب، لا ينبغي أن تؤخذ على علاتها، فهذه هي مشكلة المصادر الحديثة، لذلك ما نحتاج إلى التأكد منه بالنسبة لأنفسنا، هو المبادئ الأساسية، مبادئ القراءة، ما الذي نحتاجه، هل نكون نقاداً لما نقرأ، أم نكون متلقين فقط.

أرجو أن تكونوا استمتعتم بعض الاستمتاع، وأشك أنكم استفدتم، لكن ربما هناك متعة!

قوانين البناء المعرفي[1]

د. خالص مجيب جلبي

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والآمرين بالقسط من الناس، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، هذه المحاضرة بالدرجة الأولى مكرَّسة إلى روح داعية السلام (ليلى سعيد)[2] التي اختارها الرب، فودعتنا من دنيا الكدح والحزن، إلى دنيا الرحمن الرحيم، فإلى روحها السلامية، أقدم بيد خاشعة كلماتي هذه، عسى أن تمنح روحها السلام الأبدي، والسعادة السرمدية، ونجتمع بها في دار السلام، فطوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أولياء الرحمن يدعون.

في أول سورة نزلت من القرآن الكريم، وأول كلمة كانت كلمة "اقرأ"، وفي هذه السورة تم تفكيك أهم مشكلات الإنسان التي بموجبها يتغير تحت كلمة اقرأ، وبموجبها ينال الكرامة ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾[3] ومن خلال القراءة والقلم، والكرامة، يتخلَّص من أفظع مرض اجتماعي، الذي هو الطغيان، ذلك في الآية الأخيرة، ﴿ **كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب** ﴾[4]، ففلسفة القرآن تقوم على التغيير الاجتماعي، ليس بقتل الطاغية، وإنما بعدم طاعته!

أمام فلسفة الكلمة، فكَّرت كثيرًا، ولحظت أن القرآن الكريم في مستهل السور وضع حروفًا، فما معنى هذه الحروف: (ألم)، (كهيعص)، (طسم)، هذه الحروف

(١) ألقيت هذه المحاضرة الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول ١٤٣٠هـ الموافق ٢٤ مارس ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

(٢) زوجته ورفيقة درب فكره، التي توفيت، رحمها الله في (سبتمبر ٢٠٠٥م).

(٣) سورة العلق: ٢ - ٤ .

(٤) سورة العلق: ١٩ .

هي ترميز للكتابة، ومن الناحية الانفرقراطية، الإنسان لم يتغير إلا بالذاكرة الجديدة التي هي الكتابة، ولذلك فإن أدن توفلر[١]، عندما كتب كتابه عن الثورات، تحدث أولاً عن الثورة الزراعية، ثم الثورة الصناعية، ثم بعد ذلك أضاف ثورة جديدة هي ثورة المعرفة، أو ثورة الكلمة، والكلمة هي التي تغير الإنسان.

من ذلك أيضًا، الله سبحانه وتعالى، في سورة البقرة، حينما أراد أن يفتتح عالم الوجود، ابتدأ: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾[٢]، فاللغة الإنسانية، هي ذلك البرنامج المفتوح الذي يستطيع به الإنسان أن يرمز الأشياء، ومن ثم فإن الإنسان بوساطة اللغة أصبح خلقًا آخر، حتى أن ابن خلدون[٣] حينما أراد أن يعرف ضرورة المجتمع للإنسان، قال: إن المجتمع ضروري لأمرين: الغذاء والمدافعة، والحقيقة الإنثروبولوجية الجديدة تقول: إن الإنسان لا يصبح إنسانًا ما لم يدمج في المجتمع أو يعيش في المجتمع، ولا يصبح إنسانًا إلا بوساطة اللغة، اللغة هي كرامة الإنسان.

قلت في مستهل مدخلي لتجربتي مع الكتاب، وعندما نتحدث عن الكتاب، لابد من المرور على فلسفة الكلمة، فمن الصعوبة أن أعطيكم تجربتي، فهي تجربة تحد نصف قرن من المطالعات في مدى ثلاثين دقيقة، أو خمس وثلاثين دقيقة، فمع ذلكٍ سوف أضع أيديكم على بعض الأسرار، لعلي أنقل رسالة إلى الإخوة الحاضرين؛ لأنني لست في مجال أن أستعرض لكم كم من الكتب قرأت؛ لأنني وجدت أن الكمية كبيرة،

(١) كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال دراسات المستقبل (Futurology) تمت ترجمة كتبه إلى عدة لغات عالمية. وقام بتدريس رؤساء دول. مثل: ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي الأخير والرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين عبدالكلام ورئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد. من مؤلفاته: صدمة المستقبل؛ والموجة الثالثة؛ وتحول السلطة الحرب ضد الحرب.

(٢) سورة البقرة: ٣١ .

(٣) هو ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، كنيته أبو زيد، وهو عالم عربي شهير وواضع علم الاجتماع الحديث سابقاً بذلك علماء الغرب، تمكن من تقديم عدد من النظريات الجديدة في كل من علمي الاجتماع والتاريخ، كان يهوى الإطلاع على الكتب والمجلدات التي تركها العلماء السابقين وذلك لكي تتكون عنده خلفية علمية يستطيع أن يستند عليها في أفكاره هذا بالإضافة لتمتعه بالطموح العالي والثقافة الواسعة. ولد ابن خلدون في تونس عام ١٣٣٢م، لأسرة من أصول يمنية وكان لأسرته الكثير من النفوذ في إشبيلية ببلاد الأندلس، وقد هاجرت الأسرة مع بداية سقوط الأندلس في يد الأسبان إلى تونس وعاش ابن خلدون معظم حياته متنقلاً بين بلاد شمال أفريقيا، هذا بالإضافة لزياراته لأرض الحجاز.

وأمامي في الغرفة وأنا أعمل في التحضير لهذه المحاضرة أكداس وأكداس، فحاولت أن أقتطف من الكتب التي بين يدي، فأريد في هذه المحاضرة أن أركِّز على شيء واحد، وهو أن أنقل الروح هذه، أي أهمية القراءة والطرائق لبناء المعرفة الإنسانية.

في الوقت الراهن، العالم مقسوم قسمين: قسم من يعلم، وقسم من لا يعلم، الذين يعلمون هم الذين يملكون العالم، والذين لا يعلمون هم من المسخَّرات، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾[١].

هذا القدح الذي بين يدي، وبين يدي كل إنسان، وهو ما قاله كوبلنس في كتابه "لعبة الأمم"[٢]، فيمكن أن يلعب بالأمم أيضًا، الآن قد حاولت أن أدخل للبحث في مسك الباقات المعرفية أولاً، فأنا أعمل بطريقة قد تعجبون منها، لكن أحيانًا عندما يأتيني وحي الأفكار والكلمات، أركض وراء أي ورقة من الأوراق، فلا أرتب الأوراق والأقلام، فهذا كما ترون مغلف مهمل بين يدي، فكما ترون في الخريطة تجديد التفكير الديني، علم الاجتماع، باقات المدارس، بيولوجيا، أنثروبولوجيا، ميكانيكا الكم، السياسة والحكم، أخلاق التصوف، كزمولوجيا، فلسفة العلوم، الطبيعة والبيئة، علم الأدب، فلسفة التاريخ، اللسانيات، الروايات، حاولت أحصي، لكن هناك كم هائل جدًا.

إذا أردنا أن نعلِّم أطفالنا كيف يقرؤون؟ ولكي نسهم في خلق جيل قارئ، خصوصًا في مدارس الأطفال، يجب أن نعطي الأطفال قصصًا مصورة، يجب أن

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) كتاب يحوي أسراراً وأزمان سياسية بقيت في طي النسيان، عن شعب يعيش في غمرة الأوهام وآفاق الخيال، يستمع إلى الأصوات دونما تعليق. من خلال كتاب "لعبة الأيام" لمايلز كوبلاند، الذي نفذ إلى الواقع وكشف النقاب عن كثير من الأسرار وخفايا الأمور والتستر بدبلوماسية ما وراء الكواليس فأظهر سلوك حكام ورجالات السياسة بصفته وسيطاً طارئاً. يعدّ هذا الكتاب نموذجاً حياً، للتاريخ يهدف إلى إزاحة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الإمكانيات التي نجحت أحياناً في إحراز نصر دبلوماسي على بعض الدول الكبرى وتمكنت مع الأيام في ممارسة دور أكبر من طاقتها في السياسة العالمية. فالقوى الحاكمة تطمح دائماً إلى النزاهة والاستقامة وإضمار الغدر والخداع وفيه التلاعب بالأمم والشعوب، هذا هو جوهر "لعبة الأمم"، وهو كتاب لا يهدف إلى رصّ الجمل والألفاظ ولكن هدفه الأساسي رفع النقاب عن لعبة السياسة وعن دمى المسرح السياسي في العالم!

تهتم الأم بالطفل، وتكون دائمًا خلفه وتعلمه بكافة الطرق الممكنة وتعطيه كتبًا بسيطة، أنا بهذه المناسبة في معرض الكتاب وجدت مشترين لكتب الأطفال، وجدت محلاً خاصًا للأطفال لتعليمهم الكلمات والقصص، وهناك عدة طرق لتعليم الأطفال، بأن يأخذ الطفل كلمة كلمة، ويبنى معرفيًا، وعن طريق القصص يمكن ذلك، وقد حدث معي ذلك، فكنت أقرأ قصصًا كثيرة، وكنت أنجر في قراءة كمية كبيرة، فالقصص تجعل الطفل ينجر لها ويعيش معها.

فيجب أن نعلِّم الشباب الصغار قراءة القصص، وكما ترون روايات ماجلان، آخر الراحلين، ساعات قدر، تاريخ البشرية، ابن بطوطة، كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة .... إلخ، وسأوضح لكم كيف تلتقط الأفكار، قبل أن نأتي إلى قوانين البناء المعرفي، كما ترون على ظهر الكتاب، أنا آخذ أفكارًا وأضع أفكارًا، كما أن هذه الأفكار آخذها وأوسعها، ومن ثم فقوانين البناء المعرفي ستكون من بدايات بذور صغيرة، فكما ترون هناك ست أفكار ثم توسعت حتى وصلت إلى ٣٦ قانونًا معرفيًا، وقبل أن أصل إلى هنا تولّد معي ثلاثة قوانين معرفية، نحن في الوقت الراهن العالم كأنه في زلزال، زلزال علمي، استطعت أنا، لا أقول أحصيها، ولكن أمر على بعضها مرورًا، ترون أنه مثلاً: الفيزياء الذرية، أمكن تركيب مضاد المادة Antimaterial في الكوزمولوجيا (Cosmology) الآن صارت قدرة البشر واسعة، فالآن لا يرون النجوم فقط بل يرون الكواكب. آخر ما وصلوا إليه أنهم اكتشفوا كوكبًا يبعد عنّا ٢٠ مليون سنة ضوئية، في البيولوجيا سمعتم عن الزلزال الذي حدث في مجال الاستنساخ البشري؛ فالاستنساخ البشري قد تطور الآن وأصبح يمكن مزج تقنيتين: تقنية الهندسة الجينية مع الخلايا الجذعية.

في الأنثروبولوجيا مثلاً استطاع دونالد جونسون[1] أن يكتشف هيكل لوسي، وقد تطور الموضوع بشكل كبير حتى وصل قبل سنوات عدة إلى أن ضربوا الزمن في الرقم

---

(١) دونالد جوهانسون كارل (ولد في شيكاغو إلينوي عام ١٩٤٣)، اكتشف بمشاركة موريس الطيب، وإيفكوبنز المعروف لهيكل عظمي لأنثى إنسان المعروف باسم "لوسي"، في مثلث عفار منطقة الهدار بأثيوبيا.

القياسي إلى نحو ٥ - ٧ مليون سنة. في الطب أحدث المعلومات الآن أن هناك إمكانية لأن يبدؤوا - لا يتوقعون فقط كما في مسألة زرع الخلايا الجذعية في أمراض السكر وغيرها فقط - يتوقعون إمكانية إنتاج أعضاء بشرية، الآن هناك إمكانية لمعالجة القلب من خلال معالجة الأماكن الميتة فيه بزرع خلايا جذعية فيه، بحيث يستعيد القلب عمله بكفاية مرة أخرى، ولكن الآن ليس ذلك فقط بل إنهم يحلمون أن يسيروا في اتجاه إنتاج أعضاء!

أيضًا في جراحة العظام كسر (إليزاروف)[1] جميع المسلَّمات، فقد كان سابقًا يسمونهم المجبرون، إليزاروف ليس مجبراً بل يكسر العظام ويعمل تقنية جديدة. من يحب أن يعرف تفصيلات أكثر عن هذه الموضوعات بالإمكان أن أعطيه مقالات موسعة في هذا الجانب؛ فأنا أمر على الموضوعات سريعًا.

في الكيمياء، كما تعرفون المشكلة منذ عهد حامورابي جاء العينيائي وكسر الطب بموضوع منع الحمل، في علم الخلية الآن هناك تطور هائل؛ فقد كشفوا شيئًا اسمه (تلمريز) يطيلون به عمر الإنسان، وليس معنى هذا أنهم سيقتلون الموت! لا، بل هناك إمكانية أن يطيلوا عمر الإنسان.

في أبحاث الأعصاب مثلاً في جامعة لنت هناك طبيب يحاول معالجة مشكلة باركنسون بزرع الخلايا من القواعد السوداء، قواعد أدمغة الأجنة.

في أبحاث الجينات، الآن وصل الموضوع ليس فقط إلى فك الجين البشري، بل فك جينات القرود، وفك جينات الخلايا، والآن يريدون وضع جينومات كل الكائنات على وجه الأرض، وهذا عمل جبار.

وبعد ذلك في أبحاث التاريخ وفي هذه الأشياء الأمر ليس سهلاً، الآن الكنيسة وقفت وعملت ما يشبه البرسترويكا، ودخلوا على الملفات، واكتشفوا (٤٥٠٠)

---

(١) غافرييل أبراموفيتش إليزاروف: (١٩٢١ - ١٩٩٢م)، جراح عظام سوفييتي ولد إليزاروف في مدينة بيلوفيجا، الكائنة في روسيا البيضاء لعائلة يهودية ترجع أصولها إلى داغستان، وعقب مولده انتقلت أسرته إلى كوسار في أذربيجان حيث نشأ. عرف باختراعه جهاز إليزاروف الذي يستخدم في عمليات إطالة العظام وعلاج الكسور. حصل على لقب بطل العمل الاشتراكي (١٩٨١م)، وجائزة لينين (١٩٧٩م)، وعضوية الأكاديمية الروسية للعلوم (١٩٩١م).

ملف سري من أيام محاكم التفتيش، وراجعوها، وأعطوا rehabilitation، أعادوا الاعتبار إلى جاليليو، أما برونوا الذي حرقوه حتى الآن لم يعطوه إعادة الاعتبار.

في حفريات الجينات، هناك إمكانية الآن أن يستخرجوا جينات مثل فيلم جوراسيك بارك، وهناك إمكانية أن يستخرجوا جماجم كما فعلوا مع عائلة آل رومانوف الروس، فقد قاموا بإعادة تركيب جماجمهم وأشكالهم كما كانت.

أما جاك أتالي فقد ألّف كتابًا رائعًا جدًا، سأحاول أن أعرضه ضمن بعض الكتب، عن أخطار المستقبل، وأهم ما جاء في كتابه، هو انكسار الهوة بين الغنى والفقر بين الشعوب، ويمكن أن كارثة الرهن العقاري كانت ضمن هذا الموضوع.

الآن نأخذ فكرة عن العالم ما الذي يحدث فيه، لذلك فالثورة المعرفية هي الاطلاع، والاطلاع مشكلته الآن أنه هناك قفزة عجيبة به مثل ما سوف أعرض بسرعة لقوانين البناء المعرفي هي ليست الآن شح المعلومات، فلدينا طوفان معلومات، فبسرعة يجب الإنسان أن يتعلم أمرين: يتعلم كمبيوتر، هذا لأجيال المستقبل، يتعلم الدخول على المعلومات. ويتعلم فرز المعلومات، يجب أن يدخل بسرعة ويأخذ المعلومات الجيدة بسرعة، لذا يجب أن يكون لديه خبرة في تمييز المعلومات، هل هي معلومة جيدة أو غير جيدة؟ ويحفظ تلك المعلومة، ومن ثم يصبح لديه خبرة.

وسوف نعرض بسرعة قوانين البناء المعرفي، وقد استطعت أن أصل إلى نحو ٣٦ قانونًا، وهذه القوانين المعروضة عليكم تستطيعون أن تعدلوها بأنفسكم، نحن هنا فيما يسمى workshop فأنا لم آت لكي أحاضر لتلاميذ، فأنا أحاضر لأناس mature ناضجين بشكل كاف، وعندكم من الشخصية والعلم والتفوق، وهناك إمكانية أيضًا لكي أستفيد منكم أيضًا، ويمكن أن نوسع هذه المعلومات بشكل مفصل، ويمكن أن تكون مشروع كتاب للتعميم المعرفي والتنوير، ولكي نحترم الوقت وقبل أن أعطيكم نماذج للكتب، فنبدأ بالشكل الآتي:

القانون الأول (١)

الكتاب الجيد يقرأ العديد من المرات

كنت في الطائرة إلى كندا حين وقع تحت يدي كتاب صغير حرفه سيىء تجليده نحيف قده بعنوان تقليدي غير مثير، ولكنه كان درة من درر محيط المعرفة! كان كتاب العبودية المختارة؟ أما المؤلف فغامض غير معروف؟ قلبت الكتاب قلت ربما يشبه كتاب العبودية لابن تيمية، ولكنه كان كتاباً ضئيل الحجم جليل الفائدة، وهكذا شأن ذخائر الفكر.

قلبت الكتاب بسرعة لمعرفة تاريخ التأليف ومن هو هذا الكاتب الفرنسي ذو الاسم الغريب؟ جان لا بواسييه؟ فدهشت حين علمت أنه ألف كتابه عام ١٥٦٢م، وكان شاباً صغيراً، وكذلك ملامح العبقريات حين تتدفق.

الخلاصة قلبت الكتاب في الطائرة، والطريق إلى كندا الباردة بعيد موحش يحتاج يوماً كاملاً حتى يصل المرء، فهذا هو القدر الذي رسمته لنفسي وأحفادي من بعدي أن يصبحوا كنديين، بعد أن ودعنا بلاداً عزيزة علينا بعد أن ضاع الأمن وغابت الطمأنينة.

حين قلبت النظر في الكتاب قلت لا يجب أن يقرأ بهدوء؟ وهكذا عطفت على الكتاب طيلة الرحلة ثم أياماً في كندا في مونتريال حيث بناتي.

كان كتاباً رائعاً يدخل فيه الإنسان بنفس ويخرج بغير الروح التي دخل بها، فقد غير عقله الكتاب؟ أذكر الشعور نفسه حين قرأت كتاب آفاق المستقبل لجاك أتاليه، وكتاب مسألة الآخر واكتشاف أمريكا، أو قصة آخر الرحلين، أو كتاب علم النفس لعبد الستار إبراهيم، أو كتاب اليابان تقول لا..

وهكذا ليس كل كتاب جيداً، وهناك من الكتب من تقرأ مرة واحدة وأحياناً يندم المرء من تضييع الوقت فيخلصه دون إنهاء، وهناك من الكتب من يخضع لقانون تكرار وإعادة قراءة الكتاب الجيد عشرات المرات، وهو ما حصل معي في قراءة كتاب

تجديد التفكير الديني لمحمد إقبال؛ فقد قرأته اثنتي عشرة مرة، أو كتاب العلم في منظوره الجديد أكثر من عشر مرات، أو مختصر دراسة التاريخ لتوينبي عدة مرات، أو عندما تغير العالم أربع مرات، وهو شعوري مع كثير من ذخائر الفكر الإنساني وأنصح بهذه القاعدة قرائي.

لقد وطنت نفسي مع هذه المقالة أن أضع قوانين البناء المعرفي مثل رقعة الشطرنج بثماني وأربعين خانة، بحيث أتناول مع كل خانة فكرة مهمة عن البناء المعرفي؛ فالكتاب الجيد يقرأ عشرات المرات، حتى يهضم ويصبح في تركيبة المنظومة المعرفية

وكتاب العبودية المختارة ليس الكتاب الوحيد، ذلك الذي يجب أن يقرأ عشرات المرات مثل عملية هضم الطعام، حتى يتم تمثله على الطريقة التالية، بحيث يصبح في النهاية من ضمن تركيب المنظومة المعرفية عند القارئ.

ولشرح ذلك أقول نحن نأكل الطعام من أصناف شتى ولكن لا يخطر في بالنا ماذا يحدث للطعام سوى أننا نستمتع به!

إلا أنني باعتباري طبيباً درسنا في علم الفسيولوجيا مصير الطعام الذي نتناوله، وعرفت أن لقمة الخبز مثلا تتكسر بعد التقطيع بالأسنان والذوبان بحمض المعدة إلى الوحدات الأولية، وهي السكاكر السداسية التي تساهم في مدنا بالطاقة.

كذلك الحال مع البروتينات فقطعة اللحم تتحول في النهاية إلى وحداتها الأولية من الأحماض الأمينية.

تماماً مثل حروف علامات السيارات، فيمكن من الحروف الأولى كتابة كلمات ذات معنى!

المثل على ذلك لو وقفت أمامنا سيارة وعليها نمرة بثلاث حروف (ع-ر-ب ٨٨١)؟ لندع الرقم ونذهب للحروف فيمكن استخراج ستة معان إذا لم يكن أكثر؟ تأمل معي عمليات تحول الكلمة؟ عرب-عبر (وهي بثلاث معانٍ على الأقل حسب

حركة الحرف والشدة، فيخرج منها التعبير والتجاوز وبكسر العين عبر الأيام والتاريخ!) ثم رعب - ربع - برع - بعر .

الشيء نفسه يحدث للأحماض الأمينية التي تتكسر إلى الأحرف الأولى، ثم يبني الجسم منها تراكيب خاصة به من الهورمونات والمواد البروتينية في بناء العضلات والجسم .

وهذا نفسه يحدث في تناول وجبة فكرية دسمة وعمل العقل عليها كي تصبح من تركيب الدماغ في النهاية، في منظومة الفكر، فتتخمر مع غيرها وتتفاعل مع من سواها لتصبح شبكة معقدة من حكم الزمان وضفيرة رائعة من العبقرية المتدفقة .

القانون الثاني (٢)

قانون تقليم الأفكار وتقليم الأشجار

حسب آينشتاين فإن كشف الحقيقة مرة واحدة غير كاف، فالحقيقة تشبه تمثال الرخام المنصوب في صحراء تعصف بها رمال لا ترحم، والأيادي النشيطة التي تنفض عنه الغبار دوماً هي التي تحتفظ بلمعانه تحت أشعة الشمس ونور القمر؟

والأفكار تشبه الأشجار نمواً وذبولاً، حياةً وموتاً، وكما تقلم الأغصان ويقص الشعر فتزداد نمواً، كذلك تنمو الأفكار فتصبح شجرة باسقة طلعها هضيم، ويكتب لها الازدهار والقوة من خلال الصقل مرة بعد مرة؟

وعليه فيجب دوماً تطوير الأفكار، وتعهدها أبد الدهر، مثل النباتات وتنميتها بسماد ونور وماء، وإعادة النظر فيها تنقيحاً وتصحيحا وتكبيراً وتفخيماً، وتمريرها في كل مرة بفلترة العقل النقدي؛ فالعلم ينمو بآليتي الحذف والإضافة وكذلك الأفكار .

في مدينة مراكش وقف الأخ المجذوبي وهو يلوح بيده بكتابي القديم (في النقد الذاتي) ثم قال: لم يصدر لك كتاب بعده؟

والرجل عذرته لعدم متابعته ما أكتب، ولكن أجبته باختصار: إن ديكارت يقول عن نفسه، أنه بعد أن كتب كتابه في المقال على المنهج، قضى بقية حياته في تطبيق هذا المنهج، فأنا أحاول ترسيم وتوسيع هذا الطريق السريع الذي فتحته للنقد الذاتي، فلا يكفي مخطط الطريق، بل لابد من بنائه فتمشي عليه السيارات والحافلات!

نحن نعلم أن الشجرة كائن حي، وكذلك الأفكار فهي كائنات حية، وأهم ميزة على الإطلاق في التمييز بين الحي والميت هي التكاثر، وكذلك الأفكار فهي تنمو وتتكاثر.

والله وصف الكلمة الطيبة بأنها تشبه الشجرة الطيبة تنتج ثمراتها كل حين بإذن ربها، كما وصف الرب الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

وهذا يعني أن الكلمة الطيبة تتكاثر وتكبر، فتصبح شجرة تأوي إليها الطيور، وتعطي ثمراتها في كل حين بإذن ربها.

كذلك فإن الكلمة الخبيثة تتكاثر وتصبح شجرة كبيرة تغري وتغوي وتضل وتشقي، بأن الشر والخير صنوان متشابهان في القوة والإثمار، ولكن مصير الشجرتين مختلف؛ فالكلمة الطيبة تدوم، والكلمة الخبيثة تجتث من فوق الأرض مالها من قرار.

وهذا يفسر ظهور كثير من الأفكار الشريرة وانتشارها، مثل الأمراض المدمرة والأوبئة القاتلة. هكذا ظهرت الفاشية المجرمة، والنازية العنصرية، والبعثية العبثية، والعجل الناصري الذي كان له خوار مثل خوار عجل السامري؟

وقديماً كان ينتشر الطاعون فيحصد نصف أهل المدن ثم ينصرف؛ فلا يعلم أحد من أين جاء ولا كيف ذهب؟

وأمراض الأفكار هكذا مثلما حصل مع فكر الخوارج، الذي يحصد من حين لآخر مثل طواعين العصور الوسطى.

والأمراض تنتشر بوحدات خاصة. وكذلك الأمراض الاجتماعية.

و(الوحدات الإمراضية) في الجسم هي الجراثيم والفيروسات، والوحدات الإمراضية في الأمراض الاجتماعية هي (الأفكار).

ومثلاً فمرض الكوليرا خلفه ضمات الهيضة، ومرض السل عصيات السل. ومرض العنف خلفه جراثيم (الكراهية والتعصب). وكما كان لأمراض البدن تظاهرات من أعراض وعلامات وسير ووحدات إمراضية ووسائل تشخيصية وعلاج، كذلك الحال في الأمراض الاجتماعية، ولكن بكل أسف لم يتطور (الطب الاجتماعي) بقدر تطور الطب العضوي البدني.

والكائن الحي يتصف بالتكاثر، والصخرة جماد لا يتكاثر. والفيروس هو حلقة الوصل وجسر العبور بين الحياة والموت؛ فهو يتبلور مثل الملح، وهو يتكاثر مثل الخلايا، ولكن حتى يتكاثر لا بد له من خلية يتسرب إليها، وهذا هو وجه الخطر في انتشار الفيروس، أي اعتماده على الخلايا الحية التي تعيد إنتاجه.

وأخطر الفيروسات هي العكوسة القلوبة ما يعرف بالرتيروفيروس، مثل فيروس الإيدز، فهذا الفيروس يتسلل إلى الكود الوراثي في نواة الخلية؛ فيصبح قطعة منها، وتعيد الخلية إنتاجه وكأنها تعيد إنتاج نفسها، وهي تنتج في الواقع وسائل دمارها وسلاح خرابها، كما هو الحال في الأنظمة الشمولية التي يتسرب إلى أجهزة الأمن فيها شرار الخلق؛ فيدمرونها ولو بعد حين.

وفي حديقتي شجرة تين زرعتها بنفسي فخرجت بفرعين منذ البداية، ونصحتني زوجتي بقص أحدهما فلم أفعل، وليتني فعلت إذا لاستوت على جذع واحد، وهو ما اضطررت إليه لاحقاً، ولكن بشكل متأخر، وأن يفعل الأمر ولو متأخراً خير من أن لا يفعل.

وهذه الشجرة تذكرني بالحياة؛ ففي الشتاء تتساقط الأوراق، وفي الربيع تدب فيها الحياة؛ فتعطيني أملاً بتجدد الحياة، وأن الموت لا يزيد عن كسوف مؤقت.

وعندما زرعت بعض الأشجار في حديقتي، ولاحظت أنها تأخرت في النمو، تعجبت حتى اكتشفت أنها كانت تؤسس جذورها تحت الأرض، قبل أن تبزغ فوق الأرض بفروع خضراء زينة للناظرين.

وكما كان تقليم الشجر مفيداً فيدفع الحياة في اتجاه جديد، كذلك الحال في تقليم الأفكار، وأفكارنا تكبر مثل أولادنا، والفكرة الجيدة تنمو مثل الكائن الحي دوماً بالتقليم والتشذيب.

وأنا أعكف منذ عشرات السنوات على بعض الأفكار؛ فأعيد صقلها كل مرة لأجدها زادت تألقاً وبهاء ونمواً.

ومنها فكرة اللاعنف حيث اكتشف كل يوم أنها ليست مجرد أفكار، بل عالم قائم بذاته، وجغرافيا مختلفة، وكوكب ينزل الفكر على سطحه بإحداثيات كونية مختلفة، مثل الضغط والحرارة وتوزع الغازات.

والفكرة الجيدة يجب أن يعنى بها الإنسان من وقت لآخر فيعيد اختبارها وترتيبها وترابطها مع نظام الفكر، ومع الوقت تتشكل شبكة ونظام معرفي في وحدة فكرية جديدة.

والكتاب الجيد يجب أن نعيد قراءته مرات ومرات. وهذه الرحلة لا نهاية لها لأنها حياة تدوم وتكبر. وسبحان الحي الذي لا يموت فتوكل عليه.

القانون الثالث (٣)

قانون الأثر النفسي مع قراءة الكتاب

أن من يدخله يخرج بغير النفس التي دخل بها؟

في المحاضرة التي تقدمت بها في مكتبة الملك عبد العزيز في الرياض في ربيع ٢٠٠٩م، آليت على نفسي وضع قوانين المعرفة بأرقام، فوصلت إلى الرقم ٣٦

مبدئياً، وقد يقفز الرقم إلى ٤٨، كما فعل روبرت غرين مع كتابه (كيف تمسك بزمام القوة) وأصل الكتاب كلمة واحدة فقط هي القوة وتحتها ثماني وأربعين قاعدة في لعبة القوة.

وهذا الكتاب أصدرته مكتبة العبيكان، وهو من أجمل الكتب في علم الاجتماع السياسي التي وقع نظري عليها بعد كتاب الأمير لمكيافيللي، وكتاب المقدمة لابن خلدون، مع الفارق بين الكتابين في الزمن والطرح.

وحين يكتمل البحث قد نصدره كتاباً، وبهذه يمكن تعميم الفائدة للناس من خبرات الذين أفنوا أعمارهم في البحث العلمي، وهي بالنسبة لعلم الله كمن يدخل المخيط عباب المحيط فبماذا يعود؟

لكننا في متحارجة بين الممكن والمستحيل، ويجب أن يتقدم كل إنسان بخبرته في غاية التواضع والسهولة، حتى يمكن للمتعقب والمهتم، أن يتابع هذا الأثر ويقبس قبسة من النور فيضيء له الطريق.

وبين يدينا اليوم القانون الثالث من قوانين البناء المعرفي، وهي كيف يمكن معرفة الكتاب الجيد؟

وأجمل ما قيل في ذلك أن الكتاب الجيد أن من يقرأه، يخرج بغير النفس التي دخل بها! وهذا يحكي عن أثر الكتب الجيدة في تغيير النفوس، وهذا يدخلنا إلى ثلاثة مباحث؟ أين نجد مثل هذه الكتب؟ وكيف تتغير النفوس مع القراءة؟ وأثر القراءة في تغيير السلوك البشري؟

هكذا روى يوسف إسلام عن القرآن، وهكذا فعل بي كتاب الفلسفة لسعد رستم، ومحنة ثقافة مزورة للنيهوم، وبنو الإنسان لبيتر فارب، ومقدمة ابن خلدون، والأحياء للغزالي، والمقال على المنهج لديكارت، والخواطر لباسكال، وقصة الفلسفة لديورانت، وكتابي منطق ابن خلدون وموسوعة العراق الحديثة للوردي، ورواية آخر

الراحلين عن زوال شعب الوبيخ الكامل من شعوب قفقاسيا، ومسألة الآخر واكتشاف أمريكا لتزفيتان تودوروف، واليابان في وجه أمريكا لشينتارو إيشيهارا، وآفاق المستقبل لجاك أتالييه، والعبودية المختارة لأتيين دي لابواسيه.

وهي أمثلة من عشرات الكتب التي غيرت تركيب دماغي. وهو ما دعاني لتأسيس أكاديمية العلم والسلم الإلكترونية فطلابها يتكاثرون يومياً، وخميرتها المعرفية لاتزيد عن ٣٠٠ كتاب، في رحلة ثماني حجج فإن أتم عشراً فمن عنده.

وأذكر جيداً حين دعيت إلى بيروت في شتاء عام ١٩٩٨م لنيل جائزة أفضل مقالة نشرت في العالم العربي، وكانت تقليداً قامت الشركة السعودية للنشر والأبحاث، سبقتها إليه اليوم جائزة دبي للإبداع الصحفي، وقد رسا رهانهم مرة أخرى عام ٢٠٠٨م على اعتبار مقالتي في جدلية الشيعي والسني، أنها أفضل ما كتب في علم السياسة مع مقالتين أخريين، والتقيت يومها بهشام علي حافظ رحمه الله، فقلت له أنت حر في الإجابة؟ فما الذي دفع اللجنة إلى منحي جائزة أفضل مقالة، وبالطبع أنا أكتب هذا من أجل فهم آليات القانون الثالث، أكثر من الدعاية لقلمي؛ فنحن وأقلامنا في النهاية سيأكلنا الدود ويفترسنا التراب.

التفت إلي هشام علي حافظ وقال: كانت مقالتك في صراع ولدي آدم؛ فقد دخلت المقالة بنفس، وخرجت بنفس متغيرة، وبعدها ظهر أثر كتاباتي عليه حين راسلني، خاصة في مشكلة العنف.

ومن هذه أيضاً الأزمة الاجتماعية، وأرويها للقارئ حتى يستفيد منها، وقلدت بذلك الفيلسوف فيتجنشتاين، حين رأيت الظلم الاجتماعي، فقلت ماذا لو ودع الإنسان المجتمع وعاش لوحده في غابة؟

وهذه المسألة راودت الكثيرين، وطبقها الصوفيون والزهاد، وتورط فيها روبنسون كروزو وحي ابن يقظان، ولو كتابة، ولم يحل لي هذا الإشكال إلا بضع كتب،

ولكنها قلبت عقلي فعلاً؛ فأصبحت أنظر للمسألة الأنثروبولوجية من نحو مختلف، وعرفت معنى المجتمع للإنسان، الذي يختصر بكلمة واحدة، أننا لولا المجتمع ما كنا بشراً على الإطلاق لغة وسلوكاً وحضارة، فالمجتمع مع أنه مع الدولة السياج الحديدي، وورطة للجنس البشري، تقترب فيه أحياناً الدولة بطغيانها مع مستوى الفوضى في الغابة، ولكن تبقى هي محضن الحضارة.

هذا اللغز انفك معي حين قرأت مقدمة ابن خلدون، وأثر الغذاء والمدافعة في ضرورة المجتمع، ثم كتاب بنو الإنسان لبيتر فارب من سلسلة عالم المعرفة الكويتية عن وظيفة الأسرة الرباعية، ثم كتاب مالك بن نبي عن ميلاد مجتمع، وكيف تموت المجتمعات، ووصلت إلى حقيقة مرة في موت المجتمع العربي، ثم الأبحاث التي اطلعت عليها باللغة الألمانية مع ثورة علم الألسنيات والأنثروبولوجيا (علم الإنسان).

ليس كتابا ككتاب؟

لمدة أسبوعين متتابعين كنت في حالة تقترب من الصدمة العاطفية، بعد أن فرغت من قراءة قصة (آخر الراحلين) لمؤلفها (باغرات شينكوبا) في روايته عن انقراض شعب كامل من شعوب قفقاسيا، الممتدة بين البحر الأسود وقزوين، وهي منطقة جبال شاهقة وشعوب متعددة تدين بالإسلام، امتداداً لدولة التتار في شبه جزيرة القرم، التي تمتد كقرن من جبهة البحر الأسود، وكانت ثلاث ممالك إسلامية تم تدميرها على يد إيفان الرهيب فلم يبق منها أثر، وبنى مكانها الروس القوقاز القلعة (سيباستيول)، كما بنوا مدينة (غروزني) التي تعني المدينة القبيحة، حيث دمرت دولة الشيشان تدميراً. وهي ليست المرة الأولى؛ فقد حمل ستالين بعد الحرب العالمية الثانية الشعب الشيشاني بالكامل إلى معسكرات اعتقال في سيبريا، عقوبة له على تعاونه مع النازيين، ولم يسأل نفسه: لماذا يستجير الإنسان بالنار من الرمضاء؟

كان الأخ بسام حاجي بيك يسألني وهو شركسي من أحفاد من هاجر من القفقاس أين وصلت في الرواية؟ كنت أقول له لقد وصلت رواية الشيخ (زاورقان) إلى موضع

هربه إلى أفريقيا بعد أن قتل الحاكم التركي المحلي الذي استولى على أختيه الاثنتين وبنى بهما؟ وزاورقان هو آخر إنسان بقي من شعب (الوبيخ)، واللغة الشركسية لها حروفها الخاصة، وكلمة الخاء تلفظ بين الشين والكاف؟ كان بسام يقول مازال أمامك كثير من الحزن؟ وكان ما قرأته كفاية؟ ولم يقرأ إنسان هذه القصة إلا وبكى فيها مرات ومرات، لأنها تراجيديا حقيقية لشعب كامل وليست قصة رجل وامرأة في عاصفة حب؟

وفعلا فعندما تقدمت في الرواية ـ التي لم استطع تركها من يدي ـ كانت المأساة تتضخم، والعذاب يزداد، والشعب القفقاسي يذوي، قلت يومها لزوجتي الشركسية سامحك الله لم يكن عندي تصور عما حدث لأجدادك فهزت رأسها ولم تجب، مما دفعني بعدها على إحضار المصادر العلمية عن محنة الشعوب القفقاسية وحروبها المستمرة مع روسيا، على نية كتابة بحث كامل عن الموضوع، على طريقة بناء الثغرات المعرفية، منها ثورة الشيخ شامل، ومنها ثورات الشيشان المتتابعة، رأينا آخرها في التسعينات مع اغتيال جوهر دوداييف والمجرمين يلتسين وبريجينيف. وحتى اليوم مازالت قبضة الروس رازحة على رقبة هذا الشعب الصغير الشجاع، وكله بسبب الخطوط البترولية والأهمية الاستراتيجية للبلد.

وأذكر من الأخ عبد العزيز المطوع بعد أن اطلع على الكتاب أن نصح بأن يطبع الكتاب طبعة خاصة، وأنا أشجع على ذلك المقتدرين بطباعة ذخائر الفكر والروايات العالمية للجيل الحالي كي يعلم ما غاب عنه، ولقد حاولت الاتصال بمحي الدين سليق الذي أخرج الكتاب باللغة العربية بدون جدوى، فهذا هو الكتاب أو الرواية التي يقال عنها كتاب ليس كتاباً، لأنه ينقش في الذاكرة خطوطاً لا يمحوها الزمن، وأتمنى أن يمثل على هيئة فيلم، ولكن هوليوود مشغولة عنه بأفلام الجنس الإباحية وأفلام ضرب وقتل؟

ومن الكتب التي طبعت ذاكرتي بأثر عاطفي صادم كتاب (اكتشاف أمريكا: مسألة الآخر) لمؤلفها تزفيتان تودوروف، أستاذ السوربون من أصل بلغاري، وكانت

مفاجأة لي أخبار الكتاب والفظائع التي رواها القس لاس كاساس عن الأحداث الرهيبة والوقائع المخيفة التي مارسها الأسبان، منها قصتان لا أنساهما، ذبح أهل قرية في كوبا ومواشيهم وهم يتأملون الجنود الأسبان بكل وداعة؛ ففتكوا بهم بدون أي مبرر؟ منهم رجل قص بطنه الخنجر الحاد فاندلقت أمعاءه، فهو يحملها يتلوى من الألم، فيتقدم إليه المبشر الكاثوليكي يريد تعميده حتى يموت مطهراً من الآثام فهذا ما كان يدور في بال رجل الدين عن إسعاف هذا المبقور البطن؟

ومنها تلك المرأة التي أراد الضابط الأسباني أخذها عنوة من زوجها فلما رفضت رموها للكلاب، كلها في وقائع ميدانية سجلها رجل دين ما زال يحمل في نفسه بقايا ضمير.

فمثل هذه الكتب ليست كالكتب؛ لأن من يقرأها يخرج منها تحت وقع مشاهد متتابعة من مواقف وشخصيات مؤثرة رسمت بأفضل من ريشة أعظم فنان؟

القانون الرابع (٤)

قانون التغير والتغيير

الإنسان يتغير، والأرض تتغير، والكون يتغير، وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

هذا هو قانون الوجود. كل يوم هو في شأن. وهو قانون الصيرورة.

والصيرورة كلمة أشكلت علي، ولكن فكها سهل؛ فهي من التصير، وصار الشيء، أي أصبح وتغير من حال إلى حال، فالوجود هو هكذا، والله عبر عن الصيرورة بكلام في غاية الجلال والجمال، في كيفية تبدل خلق أحدنا مرتين وبدورتين.

الأولى الصيرورة في التشكل الجنيني. والثانية في تشكل الحياة طبقاً عن طبق.

فمن نطفة إلى علقة فمضغة . . ثم الخلق الآخر . ثم في الحياة من ضعف إلى قوة ثم ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير . وقد ينقلب أحدنا إلى ألزهايمر في نهاية الدورة فلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ثم تكمل الحلقة دورتها ، لتبدأ رحلة خلق جديدة . كذلك النشور .

وقانون الصيرورة هذا هو القانون الثالث من قوانين الوجود عند الفيلسوف اليوناني هيرقليطس ، فيلسوف الصيرورة ؛ وهو جدير بالحديث عنه في بحث مستقل ؛ فهو يقول حين تضع ساقك في برد ماء النهر ، ثم ترفعها ، وتضعها مرة ثانية لا يبقى ذلك النهر الذي وضعت فيه ساقك النهر السابق نفسه ، ولا تبقى أنت أنت ! .

وهو صادق وكاذب .

هو صادق لأن النهر يتغير فلا يبقى كما كان . بزخمه وكمية مائه ، وتياراته ، وجرفه للتربة ، وعمقه كم بلغ ؟

وهو كاذب ؛ لأن النهر بعمومه يبقى كما هو مع تغيرات طفيفة لا تعد بالحسبان ، فلو جلست ذبابة على ظهر ناقلة وبارجة اختل الميزان ولكن برقم تافه لا نحسبه ولا نعلمه ، الله يعلمه .

والنموذج على ذلك الدم في جسمنا وما فيه من أخلاط من بروتين وسكر وغازات ، فلو حسبنا كمية السكر في ثانيتين في دم أي كائن لما كان الرقم نفسه ، ولكن حسبانه في ٢٤ ساعة يقودنا إلى مخطط (جاوس) الاحتمالي ، أي أن السكر الطبيعي في الدم ، أو اليود في الدرق ، ومقدار الكلور والصوديوم والبوتاسيوم في البلاسما ، تتراوح بين حدود ومخططات ، لاتزيد ولا تنقص ، وبموجب ذلك نعلم المرض من الصحة ، فيقول الأطباء مثلا إن السكر عند الريق يجب ألا يتجاوز ١٢٤ ملغ ، وبعد الطعام بساعتين ألا يقفز عن ١٤٠ ملغ ، أما رقم ٢٠٠ ملغ ، فهو مرض يجب تتبعه وحربه .

وكذلك الحال مع البوتاسيوم في المصابين بقصور الكلية ؛ فالقفز فوق رقم ٦ إنذار ، أما رقم ٨ فهو علامة حمراء ، وقد يكون مرحلة ما قبل الوهط والموت ،

فيجب غسيل الدم فوراً، وإلا مات الإنسان مختنقا بأدرانه، فسبحان من وضع الكلية في أجسادنا تغسل ١٨٠٠ ليتر من الدم على مدار ٢٤ ساعة، بما تعجز عنه عشرات من مصالح التنظيف والزبالة في البلديات!

وقانون التغيير كما هو في الكون يتم بالنفس، والسلوك يتبع تغيير النفوس، وتغيير ما بالنفس هو من عالم الفكر، وعالم الفكر يتغير بالكلمة، لذا بدأ القرآن حملة التغيير بكلمة اقرأ؟ وثنى بالقلم وما يسطرون. وثلّث بالرفع بالعلم، وربّع بدمج المعرفة بالإيمان، فبؤس المعرفة بدون إيمان يشرح الصدر، ولا بورك لنا في طلوع شمس ذلك اليوم، الذي لا نزداد فيه علما يقربنا إلى الله تعالى.

وبالمقابل ما أفقر الإيمان بدون معرفة، ولا يمكن لمؤمن أن يدخل محفلاً دولياً، وهو غير مدرك طبيعة إضافات المعرفة الإنسانية، وإلا كان مصيره السخرية من المحفل العالمي.

وهي إحدى مشاكل الشلل العقلي في العالم الإسلامي: الانقطاع عن المعرفة، وإعادة الالتحام بعربة التغير العالمي، وهو عمل عقلي أكثر منه اقتناء منتجات الحضارة؟ فالتكنولوجيا هي نتاج من نتاج، طبقاً عن طبق، الفكر العلم ـ الأشياء.

القانون الخامس (٥)

قانون طبيعة المعرفة

كيف تنشأ المعرفة أو بكلمة أدق كيف نبني المعرفة؟

والجواب كما كان تركيب الدماغ كذلك هي طبيعة المعرفة، أي بالأبعاد الثلاثية، أو لنقل إنها بالعمق والسطح، وهذه تحتاج إلى دورات بحيث يخرج في النهاية نسيجاً معرفياً، فكما تفعل النساء مع نسج الصوف بإبرتين، بحيث يخرج في النهاية الكنزة أو القميص من الصوف يغطي الصدر، فإن المعامل عملت الشيء نفسه من أجل إنتاج

القماش، فثوب القماش هو خيطان متضافرة بالطول والعرض، ولو تمعن أحدنا في القماش للاحظ وجود مثل هذا التضافر من الخيطان.

الآن لنتصور الشيء نفسه مع خيطان المعرفة، ولله المثل الأعلى، وهذه هي الثقافة، فهي خيطان من معرفة موسوعية، وهذا هو الفرق بين الثقافة والاختصاص، فالطبيب مثلي لو بقي في حقل الطب لما أدرك العمق الفلسفي في الطب.

ولكن اشتغالي بحقول معرفية أخرى جعلني أضع كتابي حوار الطب والفلسفة، أو الوصايا العشر في الجراحة، أو التقدم العلمي والإيمان، أو العصر الجديد للطب فكله جاء من بركة الدراسات الموسوعية المعمقة.

وكما كان الإنسان خليطاً من الغرائز والعواطف والأفكار كذلك كان النسيج الفكري فوجب رفده دوماً بما يجعله في أبهى حلة.

كذلك فإن الحياة ليست طباً وفيزياء فقط، بل هي تضافر لكم هائل من الأشياء.

والقرآن يقول عن علم الله إنه عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ثم ينطلق في الوصف فيقول؛ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وهنا نرى تباينات وانطلاقات معرفية منوعة، تنقل الفكر في سباحة من الخيال اللانهائي، دليلاً على مصدر الكتاب. وفي هذا جاء شرح جميل ينصح بقراءته في ظلال القرآن عند شرح هذه الآية وإدخال عنصر ميكانيكا الكم في مفهوم العقلية الغيبية والعقلية العلمية.

وهو بحث يحتاج أن تكتب فيه مقالة مستقلة.

ثم إن متعة العلم هي بهذا التشابك المعرفي، وأنا أتفهم ملل الأطباء وأصحاب المهن من عملهم لفقدهم هذا العمق الموسوعي، ولذا جرت عادتي في الاجتماع بصاحب أي فرع معرفي أن أسأله عن فنه؟ فيتعجب ويسترسل، وكان قبل ذلك عيياً،

بل إنني أحرص على إنطاق كل العقول في المجلس، وتحرير الأتباع من سيطرة قوادهم، فينطلق لسانهم من عقال.

وهو ما حدث معي في جلسة فكرية في مدينة بركان في المغرب، عندما اجتمعنا مع رجل علم فاضل، ولكننا لو تركنا له الحبل على الغارب، لاستولى على البحث والحديث والمجلس، وهو مضرة له ولمن جلس له، كما أن من حسن الضيافة الاستماع للضيف؛ فهذا من الكرم غير المباشر. وهذه أمور تحدث من غير قصد وبنية ممتازة سليمة.

والرجل كما يقول الجاحظ عن أبي شمرة، أنه كان قد اعتاد على التحدث لقوم لا يناقشونه حتى فاجأه النظّام، فكان إذا تحدث كأنه آلة مسجلة، كلام يخرج من صدع صخرة، ذلك أن فلسفته كانت تقوم على أن الفكرة تؤثر بما فيها بدون استخدام مؤثرات الصوت وحركات الرأس واليدين ونبرة الصوت وقسمات الوجه. فلما بدأ النظام في نقاشه قفز من مجلسه وبدأ يخبط على فخذي النظام والتلامذة مذهولين من تصرف الشيخ؟

وهناك قوم ليس عندهم قدرة الإصغاء، والاستفادة من الآخرين، فوجب إنطاق المجلس، وتحويل المجلس إلى نقاش جماعي مفيد، وكان درساً عملياً للجميع.

إذن يجب تأسيس طبيعة المعرفة بشكل شامل مؤسس بالعمق والسطح، فيجب تلقيح الدماغ كما هو في إدخال المواد الأساسية للجسم؛ وهي ستة؛ من الماء والبروتينات والنشويات والدسم والأملاح والعناصر المعدنية والفيتامينات، ذلك أن الجسم معظمه ماء، وفي القرآن ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾.

أما البروتينات فهي لبناء العضلات، والدسم للشحم في الدماغ، والمعادن للدم، والكربوهيدرات للطاقة مثل السكر والخبز، هذا في العموم.

أما الفيتامنيات فهي عناصر بكميات جداً ضئيلة، ولكنها تمنح التوازن للجسم

بفعالياته المختلفة، وهي أكثر من عشرة، ولسنا هنا في شرح درس طبي، أو محاضرة في البيولوجيا، ولكنه تسخير العلوم للعمق الفلسفي للأشياء، فهكذا بنيت الحياة.

وهذا الموضوع شغل عقول فلاسفة اليونان قديما عن طبيعة العالم، ومما يتركب فذهب مذاهب بين أن أصل كل شيء هو الماء كما قال به (تاليس ٦٢٤ - ٥٤٦ ق.م)، أو أن أصل كل شيء هو الهواء على مذهب (اناكسامينيس ٥٨٥ - ٥٢٨ ق.م)، وكلاهما عاش في القرن الخامس والسادس قبل الميلاد، أما (أناكسيماندر ٦١٠ - ٥٤٦ ق.م) فقال إن هناك حقيقة أولية يتشكل منها كل شيء ويعود كل شيء في النهاية إليه!

أما فيثاغوراس فهو أبو الدقة الرياضية، وأن الكون هو فقط لغة أرقام علينا أن نستوعبها بما فيها الشعر والحب والموسيقى! ولكن تزلزل حين قال له تلميذه فأين الدقة في الرقم (١٤١٤١٤١ ,٣) في العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها؟ ويقال إن هذا كلف التلميذ حياته!

ومن قال بالعناصر الأربعة، أي أن الوجود وأي موجود هو في النهاية مزيج من أربع عناصر هي الهواء والماء والتراب والنار، ولكن ديموقريطس قال بالمبدأ الذري فكان سباقا في رحلة العقل أكثر من ألفي سنة، حتى أثبت أوتوهان نظريته وضدها بإمكانية انشطار الذرة، ومنها جاءت الطاقة والسلاح النووي، هذا رزقنا ماله من نفاد.

وذهب هرقليطس صاحب مبدأ الصيرورة والحرب أن النار هي الشيء الوحيد الذي لا يتغير، وعليه فقد ألقى نفسه في النهاية في بركان إتنا وأنهى حياته بشكل درامي ليثبت آرائه بهذه الطريقة الفاجعة؟

وبالنسبة لموارد الجسم من الفيتامينات؛ فقد وجد مثلا أن الفيتامين سي (C) يؤدي فقده إلى دار الأسقربوط للبحارة الذين لايأكلون الخضار الطازجة، فتهرّ الأسنان وتتقرح اللثة، أما الفيتامين دال (D) فهو درع العظام، ونقصه يؤدي لداء الخرع،

فتلتوي عظام الصبي بعد استقامة، أما الفيتامين أ (A) فهو وقاية للعيون ونقصه يؤدي للعمى الليلي، ذلك أننا إذا دخلنا الظلام كما في دخول السينما، اشتغلت آليات جديدة فنرى في الظلام ولكن بعد حوالي ثلاثين أو أربعين ثانية. ومثل المعادن للجسم هو في الحديد (Fe) فهو للدم مثل الخرسانة المسلحة، حيث توجد ذرة حديد في كل ٥٧٤ حمض أميني لبناء الهيموغلوبين الخضاب الدموي الذي يحمل الأكسجين لأنسجة البدن. . . وهكذا.

وكذلك حال البناء المعرفي فيجب تغذية النسيج المعرفي بمواد غذائية.

كذلك إدخال الأفكار إلى الدماغ؛ من عشرين حقل معرفي؛ كما هو في إدخال عشرين حامض أميني يحتاجها البدن لتركيب وبناء نفسه وترميمها، فكما احتاج الجسم إلى الليزين والأرجينين والغوانين والثيمين والسيتوزين والأدنين، كذلك هو بحاجة لفكر التجديد الديني والكوسمولوجيا والتاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الألسنيات وعلم النفس والفلسفة والفيزياء الذرية وقوانين السياسة والاجتماع الإنساني.

وإذا كان نقص الحديد يعالج بأكل السبانخ والشوكولاتة مثلا أو مركبات الحديد المكثفة، كذلك يمكن للثقافة أن تصاب بفقر دم، إذا نقصت الدراسات الفلسفية؛ فوجب رفد الدماغ بالدراسات الفلسفية المعمقة، وهو مشروع اشتغل عليه حالياً بعنوان الكتاب الفلسفي في محاولة تبسيط هذا الفن للقراء.

القانون السادس (٦)

منافذ الفهم والإيمان والكفر!

حين وصف القرآن الكافرين قال إن منافذ الفهم عندهم لا تستقبل الإشارات الكونية، وفي أكثر من موضع: صم بكم عمي فهم لايعقلون! بل وصف الكفر والإلحاد بالدفن وقبر الروح بدون استقبال أشعة الكون المتدفقة مع كل لحظة. ووصف الإيمان هو ذلك الأمل العظيم في معنى الحياة؛ فاليأس أخو الكفر، والقنوط صديق الضلال.

ومنافذ المعرفة أربعة: السماع والنطق والقراءة والكتابة. . فلنفتح نوافذ الفهم مثل شبابيك الغرف المظلمة كي تتهوى ويتخللها هواء منعش.

﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

ويوم القيامة يقولون: ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب الجحيم**﴾.

إنها أدوات الإيمان بالتشغيل، والكفر بالإغلاق.

والكفر لغةً الردم والطمر والإخفاء. .

والإيمان إذن هو استقبال أشعة الكون الرائعة فتنشط الروح، كما تنشط الحواس، باستقبال ضوء مثير ولون بهيج ونغم بديع.

ومنافذ المعرفة أربعة: السماع والنطق، فوجب تدريب الحوار العقلي؛ والقراءة والكتابة فوجب تنشيط الذهن بحوافز الأفكار بالقراءة الصامتة، والقراءة الإيجابية، والمنوعة، والصادمة أحياناً؛ فوجب الاطلاع على التراث الإنساني كله.

الصامتة استيعابية، والإيجابية أن لا ينام الإنسان معها! بل يطرح السؤال ليجد جوابه بالبحث بين أكداس الكتب والصفحات والنشرات والإنترنت.

والمنوعة من كل بستان زهرة، ومن كل حقل فكرة، ومن كل مفكر عبرة، ومن كل فيلسوف قبسة.

وهذا يعني فتح أفق التفكير والاطلاع، فليقرأ الإنسان للعقلاء والمجانين، وهم ليسوا مجانين بل الناس سموهم كذلك.

ليقرأ هلوسات ماوتسي دونج في كتابه الأحمر، وخرابيط القذافي في كتابه الأخضر، وترانيم كورتوا الشيوعي المخضرم في كتابه الأسود! وسحبات ونفثات نيتشه مع (هكذا تكلم زرادشت). واعترافات الكاهن جان مسلييه وكفره بالكنيسة، ونقد فولتير اللاذع، وعمق التحليل عن لابواسييه في مسألة الطغيان، وحدة

القصيمي في الرسائل المتفجرة مع القلعجي، وروعة قلم النيهوم في محنة ثقافة مزورة، وجدل هيجل في الأضداد، ومسحة التشاؤم عند شوبنهاور، ودأب البدوي في مسحه الفلسفي، ليصل إلى الإنسان الكامل في الإسلام.

أو تلك الكتابة السهلة الممتنعة عند طه حسن والوردي، وبحث أمين حول الحقيقة. وتاريخ العقل عن المسلمين في تاريخ أحمد أمين. وإبداع كامل حسين في وحدة المعرفة. وصوفية الغزالي. وفلسفة كانط، وصوفيات ابن العربي، بل وإلحاد وكفر ميشيل فوكو بالإنسان، ودعوته مع هابرماز الألماني إلى ما بعد الحداثة.

ليقرأ ولا يتشنج، وليطلع ولا يقف عند حافة وزاوية، بل يقول كما علمنا الرحمن؛ وقل رب زدني علماً.

وحسب برتراند راسل فهو يقول لو كان الأمر إلي لعرضت على عقول الأطفال أكثر الآراء تبايناً، حتى أنمي عنده ملكة النقد.

وما نحتاجه اليوم العقل النقدي أكثر من النقلي؛ فالعقل النقلي يبرر ويدافع وينشر، ويمشي إلى الأمام بمهمة وعظية للآخرين.

أما النقدي فهو للداخل يمحص الأفكار ويغربل، ويتأكد المرة بعد المرة، فينقد ثم ينقد النقد، ثم ينقد نقد النقد، وهي عملية النفس اللوامة التي ستنجح في اجتياز عقبات يوم القيامة.

ويجب أن يفهم طرفا النزاع في المجتمع، كما ذكر أحمد أمين في كتابه التاريخ العقلي عند المسلمين، أنه لو بقي تيار العقل والنقل يعدل بعضهما البعض بين جموح وفرملة، لكتب للعالم الإسلامي مصير مختلف، بل ربما كما ذهب إلى ذلك (غالب هسا) في كتابه العالم فكر ومادة إلى قيادة الجنس البشري . . .

ولكن استيلاء تيار النقل وتحطيم العقل ضرب جناح العالم الإسلامي فهوى طير بجناح واحد يتلوى من هول الوقعة؟

القانون السابع (٧)

الكتب التي غيرت التاريخ

جاءتني قبل أيام نعوة عبد الصبور شاهين رحمه الله، ونحن عرفناه عن طريق مالك بن نبي، ويبدو أنه كان يترجم له أو يساعد في نقل أفكاره، والعمالقة يحملون الآخرين فيعرفهم الناس، ولولا مالك بن نبي ما سمعنا به إلا من خلال محنة نصر حامد أبو زيد؛ فقد كان هذا النزاع المزعج بدون مبرر خلف تطليق زوجة الأخير بفتوى أزهرية، ولا جديد في هذه الفتاوى السلطانية، والرجل لحقته أي أبو زيد زوجته إلى المنفى في هولندا، وبذلك أسهم شاهين في رفع أسهم أبو زيد بدون أن يدري؟ ومن أعجب ما قرأت لاحقا أن نفس عبد الصبور شاهين حاول أن يكتب في الانثروبولوجيا الدينية، ومحاولة التوفيق بين الأبحاث العلمية الجديدة في تاريخ الإنسان والنص الديني؟ فهجم عليه من جماعته من أذاقه الكأس نفسها، التي أذاقها هو لنصر حامد أبو زيد، وهو إن دل على شيء فهو يدل على أن سيف التعصب مصلت على رقاب الجميع بمن فيهم من استخدمه، كما وصلت المقصلة إلى رقبة روبسبير في الثورة الفرنسية بعد أن أرسل إلى المقابر طبقة كاملة من الارستقراطيين إلى المدفنة بدون رؤوس؟

والمهم فقد جاءني في النعوة أن الرجل أي شاهين ترك خلفه أكثر من تسعين كتاباً؟ والسؤال إنه جهد مبارك ولكن هل هو ترداد لشيء موجود وإعادة لما كتب؟ أم فيه إبداع جديد وثورة معرفية؟ ما يسميها توماس كون في كتابه (بنية الثورات المعرفية) عن النماذج الإرشادية (Paradigms) كيف يتقدم مفكر بطرح جديد يقلب التصورات في العلوم أو المفاهيم السائدة.

ولعل القرآن يعتبر الكتاب رقم واحد في العالم الذي أنبت وأنتج أمة كاملة، وبتعبير المفكر قطب جيل قرآني فريد، ويعزى ذلك إلى ثلاثة عناصر:

ـ ذهن بدوي بسيط لم يتعقد فلسفياً أو يستعبد من حكومات مركزية.

ـ وثانياً أن هذا لم يكن ممكناً لولا أن القرآن تنزل على مكث كما جاء في آخر سورة الإسراء: ﴿**وقرآناً فرقناه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً**﴾ ولم يتنزل دفعة واحدة، فهو ليس كتاباً نظرياً، بل كما وصف الصحابي الجليل ذلك بدقة أنه كانت إذا تنزلت عليهم عشر آيات محكمات تأملوها وحفظوها وفهموها وعملوا فيها، أي أن الكتاب الذي يغير هو الكتاب الذي نزل في واقع ميداني.

ـ والثالث أن النموذج أي النبي ﷺ في الميدان يمثل فقرات الكتاب في فقرات من حلول اجتماعية، فلم يكن يضع يده ﷺ في مسألة أو يواجه تحدياً إلا ونجح، والجماهير تقدس الشخصيات الناجحة، فكيف مع رجل يعيش بين أظهرهم، كما قال تابعي إنهم كانوا سيحملونه على الأكتاف طوال الوقت؟ فيجيب الصحابي من واقعه؛ إنهم كانوا في معركة الخندق في برد وجوع وخوف والرسول ﷺ يقول من يذهب إلى القوم ويأتي بخبرهم أسأل الله ان يكون رفيقي في الجنة فلا يتحرك أحد حتى يأمر صحابياً فيغطس بينهم ويسمع قولهم وينقل خبرهم ووضعهم ولم يكن بأفضل من وضع المسلمين المحاصرين بكثير؟

بل إن الوردي يفاجئنا بفكرة محيرة تجعلنا نراجع مسلماتنا ماذا كنا سنتصرف لو عاصرنا النبي ﷺ مثلاً في حادثة ضربه في الطائف؟؟ نزلنا عبر الزمن بدون أن نعرفه ثم نفاجيء بالمنظر هل كنا سننصره أم نشترك مع الضاربين؟؟ إنه سؤال مزعج؛ ولكن لابد من طرحه؟؟

ليست العبرة في كثرة الكتب بل بما حوت؟

قل لايستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث؟؟ هكذا يحكم القرآن على الكثرة والنوعية؟ إن كتاب دارون عن الأنواع، ومقدمة ابن خلدون، أو رأس المال لكارل ماركس، أو حول النظامين لغاليلو، أو تفسير الأحلام لفرويد، أو حتى في

الكتاب الجديد (ألمانيا تلغي نفسها) للدعي النازي الجديد تيلو سارازين، ولدت كاملة دفعة واحدة على نحو نظري، ولم يكن القرآن يتنزل هكذا بل بظروف نفسية معينة في إجابات عن حالات ووقائع؟

تأمل مثلاً قصة الإفك من سورة النور، أو سورة آل عمران ومعركة أحد وكيف همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما، أو منكم من يريد الدنيا، أو معركة الخندق وكيف جاء العدو من فوقكم ومن أسفل منكم وبلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديد؟

أو ظروف اليأس من كل مكان، وسورة يوسف تتنزل تقول حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا؟

فكلها آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجادل في آيات الله إلا كل ختال كفور، ولذا فهو لايفتح أسراره إلا لمن يدخل هذه الأجواء النفسية؟ فيستوعب حقيقة الكلمات مذاقاً شهياً للمتوسمين.

ولذا فليس العبرة أن ينتج الإنسان مئة كتاب أو عشرة كتب، بل ما هي الأطروحة التي تقدم بها، وأنا شخصياً أصف مثلاً المفكر جودت سعيد مثل مؤلفي الأوبرات والسيمفونيات، فهو ينتج الفكر في سيمفونيات محددة ربما وصلت للعشرين، فيكرر بعضها حتى ينتج الشيء الجديد، وحين اجتمع به أقول بدأ بالسيمفونية الثالثة ثم ١٤ ثم ١١ ثم سبعة، . . . وهكذا، والرجل عنده قدرة أن يتحدث على نحو متواصل عشر ساعات بدون أن يشعر بالتعب، وموهبة أن تتكلم أصعب من أن تكتب يتحلى بها بعضهم، فإن تحدثوا أصقعوا، وهناك من الناس من لايتكلم كثيراً ولكنه ينتج غزيراً على نحو صموت؟

وهذا الموهبة تنقل أيضاً عن جمال الدين الأفغاني أنه كان يختلف عن محمد عبده، الذي كان متحدثاً بارعاً، ولكنه لم يكتب الكثير وأشهر إنتاجه هو العروة الوثقى التي أخرجوها من باريس ولم يطبع منها سوى ١٧ عدداً على ما أذكر؟

مع ذلك قد ينتج فيلسوف عظيم مئة كتاب أو قريباً من ذلك، والعبرة هي في المحتوى، فقد ترك عبد الرحمن بدوي خلفه شيئاً من هذا وكذلك برتراند راسل، ولكن جون لوك أنتج ثلاثة كتب في وقت متقارب، وفي الستينات من عمره رفعته لمكانة الخالدين.

وكذلك فعل إيمانويل كانط مع كتابيه (نقد العقل الخالص) (ونقد العقل العملي) فهما من ذخائر الفكر الإنساني.

أما شوبنهاور فلم يكتب سوى كتاب واحد مهم عن الكون إرادة وفكرة ولم ينتشر وعرض الناشر أن يبيعه في النهاية على شكل رزم ورقية؟

أما غاليلو فقد هز العالم في كتاب هو بحث في النظامين فخرت قبة السماء على رأس البابا والكرادلة، وترك سبينوزا خلفه أربعة كتب قال عنها ديورانت كانت أفضل من كل فتوحات نابليون والإسكندر.

وترك دارون كتابين عن (أصل الأنواع) و(أصل الإنسان) هزت العالم وما زالت، وترك كارل ماركس كتابه في (رأس المال) الذي هز فيه رأس المال العالمي سمك القرش وأقض مضجعه، ولم يكن خطيراً لولا نشوء الشيوعية ودولها وحروبها ومصائبها من خلف الفكر كما حصل مع النازي وكتابه "كفاحي"؟

أو الكتاب الأحمر وماوتسي دونج، أو صاحبنا من الشرق وكتابه الأخضر الذي زعم أن فيه حلول كل مشاكل الجنس البشري في الوقت الذي يتخبط فيه صاحبه في مشكلة خلف أخرى بدون حلول؟ أو الكتاب الأسود لستيفان كورتوا عن مقتل ٢٠٠ مليون من الأنام من وراء طاعون الشيوعية، ولا تختلف عنها الفاشية والبعثية العبثية وأشكالها ونظائرها؟

ولذا فليس العبرة أن يكتب الإنسان كثيراً بل أن يقرأ كثيراً حتى يفيض، وينقل شلش عن ديورانت في كتابه قصص من التاريخ أنه لم يكن يكتب مجلداً واحداً من

مجلداته الـ ٤٢ في قصة الحضارة قبل أن يقرأ خمسة آلاف كتاب، مع رحلات علمية للثقافة التي سيكتب عنها.

ويأتيني الكثير يطلبون نصحي أنه يريدون نشر مقالاتهم في مواقع، وجوابي يفجعهم حين أنقل لهم هذه الأرقام؟ ولكنها الحقيقة الموجعة أنه لم تكن الحكمة لتجري على لسان أحد ما لم يخلص لله أربعين سنة، ويقرأ أربعة آلاف كتاب؟

القانون الثامن (٨)

عتيق الكتاب قد يكون كنزاً معرفياً

كما بيعت مخطوطة أرخميدس التي ظهرت للسطح بعد ألفي سنة بالمزاد العلني بمبلغ ٢,٢ مليون دولار اشتراها ملياردير الأمازون في الإنترنت جيفري بيزوس. وحول هذا العالم يمكن تشييد ما يعرف بلحظة أرخميدس.

(لقد أمكن إنقاذ مخطوطة أصلية لأرخميدس بعد مرور ألفي سنة عليها، حيث كانت يد التزوير قد اشتغلت عليها، لمحو الكتابة، ولكن تقنيات العصر استطاعت أن تفك اللغز الأخير لكامل المخطوطة، وهي حالياً في متحف والترز الفني في بالتيمور، وتعتبر قصة كشف وقراءة المخطوطة ملحمة من ملاحم العلم، أعلن عنها في نهاية عام ٢٠٠٧م).

أما قصة هذه المخطوطة فهي من قصص المغامرات، وتبدأ رحلة الكتاب من بيزنطة حيث تمت كتابة أفكار الرجل الرياضية في مجلد خاص، بحبر بني على جلد البارشمان (Parchment)، فاختار الكاتب سبعة فصول في علم الرياضيات تعتبر أهم ما أنجزه عقل هذا العبقري؟

ويضم المجلد أيضاً مقالات لأرسطو، وبعض الخطابات من العصر اليوناني الذهبي في قطعة نفيسة من الفكر الإنساني..

كان هذا أيام النهضة العقلية في بيزنطة قبل أن تقع في قبضة المتشددين الذي يصبون العلم في قوالب إيديولوجية.. كان هذا عام ٩٥٠ ميلادية..

إلا أن بيزنطة بدأت رحلة الانحدار، وحدثت الكارثة في عام ١٢٢٩م، حيث وقعت المخطوطة الأصلية في يد رجل دين ليس من أجل قراءتها، بل أحضر هذا (المتحمس!) عصير ليمون وإسفنجة وبدأ في الدعك والدعس والكشط محاولاً إزالة أثر الكتابة؟!

محا العلم وهو يتلو التراتيل بسم كل القديسين، ثم كتب بعد كشط هذه المخطوطة العظيمة من علم الرياضيات والعصر الذهبي في أثينا، سخافته الدينية فوقها، والتي كانت من الجلد لحسن الحظ؛ فحفظت بصمات الكتابة الأولى عليها؟!

بعدها قام الإيديولوجي وبسكين فقطع المخطوطة في منتصفها وطواها اثنتين ثم حضرها لكتابة مختلفة..

لقد أظهرت التحريات أن رجل الدين هذا لم يعتد فقط على مخطوطة أرخميدس بل كشط الجلد في خمسة كتب أخرى نفيسة.

ومما محا من هذه المخطوطة عشر صفحات للخطيب اليوناني (هايبريدس Hyper-ides) الذي عاش عام ٣٥٠ ق.م في أثينا، مع تعليق قديم بخط أرسطو.. المعلم الأول..

وتبدأ قصة الكشف عن هذه المخطوطة إلى ما قبل ١٥٠ عاماً، حين عرف قيمة هذه المخطوطة البحاثة (كونستانتين فون تيشندورف Konstantin von Tischendorf) من لايبزيج في ألمانيا، حين كان الأول الذي اطلع عليها في القدس في مكتبة كنيسة قبر السيد المسيح.

وفي عام ١٩٠٦ رحل العالم الدنمركي الجليل (يوهان لودفيج هايبرج Johan von Heiberg) إلى الشرق، ويصفه أقرانه انه كان عظيم الجسم بلحية كثيفة مجعدة.

ومن الغريب أن المخطوطة عثر عليها في استانبول بدلاً من القدس؟ فكيف رحلت إلى هناك؟

قرأ هايبرج المخطوطة بشغف بالكامل وترجمها، وكان حال المخطوطة لا بأس بها حينها قبل قرن من الآن؟ ونسخ رسمات الرياضيات، وهناك أربع صفحات صبغت برسومات ملونة لم يستطع قراءة الكتابة فيها. .

بعدها بقدرة ساحر طارت المخطوطة من إستانبول إلى يد عائلة فرنسية، أما من وكيف حدث هذا الطيران فلا إجابة؟ وأقسم البطريرك المسؤول عن المعبد في إستانبول (تيموثيوس فون فوسترا Timotheus von Vostra) أن لا علم له بشيء؟

وهكذا فقد رسا مصير المخطوطة في جعبة السيد الفرنسي الرحالة (ماري لوي سيريه Marie Louis Sirieix) وكان ذلك عام ١٩٢٣م، ولكن ليس من دليل ولا (وصل استلام) بالمبلغ أنه بيع من مكان محدد؟ فقد كانت تجارة سوداء تعبث بالمخطوطة التي بدأ الشحار الأسود والعفن يأكل فيها، خاصة حين حفظت في باريس في قبو بارد معفن؟

وقبل أن يموت التاجر الفرنسي سيريه عام ١٩٥٦م زين الكتاب بأربع صفحات ملونة من صور قديسين بقصد بيع المخطوطة؟ وانتقلت المخطوطة إلى يد ابنته التي عرضت المخطوطة أخيراً للبيع في السبعينات، من خلال ٢٠٠ بروشور أرسلتها إلى متاحف العالم؟

وأخيراً وقع الرهان في ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٩٨م حين عرضت المخطوطة في الإنترنت تحت الشيفرة (أوريكا ٩٠٥٨) فبيعت في المزاد العلني في معرض (كريستي) حيث حاول بطريرك القدس من جديد استرداد المخطوطة فخسر الدعوى قضائياً لبعد الزمن، وحاول القنصل اليوناني دخول المزاد العلني بأي ثمن، ولكن مليارديرالأمازون (جيفري بيزوس Jeffrey Bezos) (صفحة بيع الكتب في الإنترنت) كان له بالمرصاد فقد انسحب القنصل عند الرقم ١,٩ مليون دولار، واشتراه الملياردير بدون أن يفصح عن اسمه بمبلغ ٢,٢ مليون دولار؟

فأين عيون أرخميدس الدرويش لترى مخطوطته كم أصبح ثمنها؟ وهو الذي كان يطوي خاوي البطن لا يهمه سوى العلم؟

وحسنا أن وقعت المخطوطة ذات ١٧٤ صفحة في يد مالك الأمازون؛ فقد أعطاها للمتحف الفني في بالتيمور لفك سرها النهائي، وبالتعاون مع وكالة ناسا، واستخدام المسرع النووي الفيزيائي، واستخدام أشعة رونتجن وما فوق البنفسجية، أمكن الوصول إلى الأسطر الممحية بطريقة في غاية البراعة وبذلك قرئ النص للمرة الأولى على نحو كامل . .

ولعل فكرة العالم النحرير تسعفنا في وضع العالم المادي في مقابل عالم القيم والمثل، فهو كان يرى أن جميع السوائل محدبة الوجه مرتبطة بمركز الأرض، وهي فكرة تقترب من الجاذبية، وهي سطوح مائلة عوجاء غير مستقيمة؟ ولكن أين الاستقامة في حياة الناس؟ ، وكم هي عدد الأمور العوجاء الشوهاء البتراء في هذا العالم المشبع بالظلم والأحزان . .

القانون التاسع (٩)

قانون نون والقلم وما يسطرون؟

يجب استخدام القلم مع الكتاب، وحصد أفكار جيدة حاول أن تغرسها مع أرقام صفحاتها في أول صفحات الكتاب الفارغة، وبذلك ترجع لها دوماً فهي أفكارك التي تستفيد منها دوماً .

كنت في زيارة للمثقف العلواني فوقع نظري على كتاب ٣٣ قاعدة استراتيجية في الحرب) وهو الكتاب الثاني لروبرت غرين الذي كتب (القوة)، فاختطفته وبدأت أتصفح قصصه الأثيرة المثيرة؟ ومباشرة كتبت في الصفحة الأولى ص ٣١٦)) عن قصة العبد فردريك دوجلاس والإقطاعي توماس أولد والجلاد روبرت كوفي، وهي قصة سوف

أسردها في مكان آخر؟ نظر لي الأخ العلواني بشيء من العتاب وقال تمنيت ألا تكتب عليه فهو يخص رجلاً مهماً ذو منصب متألق ومقام رفيع أن يتلقى الكتاب بدون (تشاخيط وشخبرة ؟ عفواً) قلت له حسنا هذا الكتاب اطلعت عليه لأول مرة عند أبو ابراهيم صديقي المقاول المثقف الذي يعمل نهاراً مع العمال والمليسين والبلاطين والمساحين والحمالين والمطينين، مطبقاً قول من يقول عن البناء والعذاب والشقاء في رفع الأبنية والفيلا؟ هو عمل في الشموس ومعاشرة التيوس وإهدار الفلوس وإزهاق النفوس؟

نعم، دوماً تحدث حوادث في البناء وأنا شخصيا عاينت موت صديقي المهندس أبو طه أمام الفيلا التي بنيتها في الجولان بجهد ست سنين فلم أسكنها؟

نظر لي الأخ جميل وأنا أتصفح كتاب الحرب لروبرت غرين وقال إنه شدني فعلاً؟ قلت له إنه ثاني كتاب لهذا الجني روبرت غرين في التأليف؟

ولكن الأسطر الأولى لم ارتح فيها تماماً وعرفت أن هذا الكاتب يمشي على النحو التشاؤمي نفسه مع كتابه الأول عن القوة، أن العالم مظلم ظلامي والأساس هو المراوغة والنكد والكيد والاقتتال والاحتراب.

وأنا لا يهمني وجهة نظره ولكنني آثرت الاطلاع على الكتاب وعسى أن أعطي خلاصة عنه لاحقاً؟

المهم هذه عادتي وديدني في حفر الكتاب أثناء قراءتها في أخذ خلاصات فكرية من الكتاب، وكتابتها على الصفحات الأولى من الكتاب لأهم ما ورد فيها حسب وجهة نظري استطيع الرجوع لها دوماً، وهي عادة أنصح بها القارئ، فإن لم يكن فليفصل أوراقاً صغيرة يجمع فيها هذه الخلاصات الغنية.

وكلا الكتابين أي القوة والحرب أخرجته العبيكان بأكثر من طبعة على أساس أنه الكتب الأكثر مبيعاً، وهو يستحق هذا اللقب، فلقد وقع الكتاب أي الأول القوة والذي ترجمه البيجرمي بعنوان: كيف تمسك بزمام القوة، وقع أول مرة تحت نظري

حين قرأت مقالة نشرتها مجلة درشبيجل الألمانية في أعقاب صدور بحث نفساني خطير بعنوان التجربة؟

وهي ثاني مرة أقرا فيها عن هذا الموضوع عن تجربة خطيرة وقعت أيضاً في جامعة ستانفورد في أمريكا قام بها طبيب نفساني، وقام فيلم الرئيس الفرنسي بعرض هذه التجربة على نحو مروع، خلاصتها أن الإنسان يجلس في صدره وحش جاهز للانقضاض في أي لحظة، فقد قسمت التجربة المتطوعين قسمين، واحد يعطي الأسئلة والثاني يجيب، فإذا قصر الأول وأخطأ لسعه بالكهرباء؟

من العجيب أن هذه النكتة تحولت إلى واقع مروع من جلادين ومضطهدين بحيث لجأ المجربون إلى إيقافها بعد أيام ونقل بعضهم إلى المشفى من ضربات التعذيب والاقتراب من حافة الجنون؟

وهو ما يفسر لنا كيف رأينا مع أحداث ثورة تونس على الديكتاتورية كيف كان يضرب التونسي التونسي ضرباً مبرحاً؟ فهذه هي آلية السيطرة والانصياع . . . وأيضاً التحرر من الخوف؟ فأعظم شعورين يدمران الإنسان هما الخوف والحزن؟ لماذا؟ لأن الحزن تجميد في الماضي والخوف حالة هلع مما سيأتي وبذلك ينحبس الإنسان في خانتين ويلجم بسلسلتين؟ ولذا قال الرب عن الصالحين: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ . . .

إذا من التأسيس المعرفي مسك القلم مع القراءة، بل وأحياناً التلوين لتسطير أهم ما مر فيبقى في الذاكرة.

القانون العاشر (١٠)

قانون العبقرية وسنوات النضج

يحتاج المرء حتى ينضج إلى ثماني حجج؛ فإن أتم عشر فمن عنده، وما أريد أن أشق عليه، كما حصل مع خدمة موسى في بني مدين، ولكن بجهد متتابع بدون

انقطاع، وبجمع ما لا يقل عن مئة ألف وحدة معرفية، وفيها يصل إلى النضج المعرفي، ويمكن له أن يكتب بعد أن يكون قد قرأ في أقل تقدير حوالي ألف كتاب، أو كما طرحتها أنا في أكاديمية العلم والسلم الإلكترونية لتلامذتي حوالي ٣٠٠ كتاب في عشر سنين، بمعدل ثلاثين كتاباً كل سنة، بمعدل كتاب على الأقل كل أسبوعين من ذخائر الفكر الإنساني، وفي قناعتي أنه ليس ذلك الجهد الهائل، فأنا شخصيا أذكر ذلك اليوم، فعملت ما كنت أعمل في حفظ القرآن من الاستيقاظ الصباحي وأخذ المصحف في اليد، أو ساعة الغروب وكلاهما ساعتان فيهما رحمة من الله ولطف كبير، فكنت أحفظ ما استطعت ولم يكن في نيتي حفظ القرآن فجاء بالتدريج على غير قصد حتى اكتمل فما زلت أتمتع بمعانيه حتى اليوم، فأنا أقرأ دوريا كل يوم حصة فأتمتع وأجول بصري في لجج محيطه بحثاً عن درة جديدة من المعنى، وعلى السالك لهذا الطريق أن يحذر من الأمراض الثلاثة : الغرور والكسل والاجترار.

وعلي شرح ما مر وبسرعة :

فأما فكرة السنوات العشر فهي واضحة على القارئ أن يقرأ بهمة ونشاط ويودع التلفزيون وبرامج تضييع الوقت فهو في رحلة إلى الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وهذا يعني أن يحضر كتب العشر سنوات وهي ستأتي في نهاية بحثي على الأقل مئة كتاب، ويفضل وهو الأحسن إلى درجة الإحسان أن يوصل الرقم إلى ٣٠٠ أو ٥٠٠ كتاب وسوف يرى هذه الكتب في نهاية هذه الرسالة الممتعة.

وأما الوحدات المعرفية فهي ماي سميها علماء النفس (التشنك CHUNK) ويضربون على ذلك مثلاً من لعبة الشطرنج، أن اللاعب الذي كون عنده أفكاراً حول اللعبة فهو حين يرى القول على طريقة الجشتالت أي الرؤية الشمولية، وكلمة جشتالت ألمانية تعني الشكل أو التشكل أو الرسمة والهيئة يقصدون منها أن نظرة واحدة إلى الموقف تصنع ذلك التصور العام المبني على أفكار سابقة. وهكذا فيمكن للشخص أن يبني في حدود مئة ألف وحدة معرفية يصل فيها إلى رأس سلم العبقرية والهضم المعرفي.

وعلى طريقة القراءة أن تكون كما شرحت أن يكون صاحياً يقظاً حاضراً الذهن يلقي السمع والبصر وهو شهيد، فلا يترك عويصاً ومستغلقاً كما يقول ابن خلدون إلا ويعيد فيه النظر كرتين وثلاث حتى يفكك المعلومة ويهضمها فتنتقل بذلك إلى نظام الفكر عنده وينسى أحياناً حتى مصدرها، ولكنها تصبح من التركيب أو نظام الفكر عنده.

مثل على ذلك التفريق بين الفكرة الثنائية وقانون الطيف، أو فكرة الاستحواذ القطبي ورؤية العالم بمنظار سوادي مظلم فهناك أمور تتولد من حيث لايشعر ولا يتوقع خلاف مقصودها، وهو ما يقوله القرآن: ﴿ **لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم** ﴾؟

الثنائية من منظور الفيلسوف أبكتيتوس:

"ليس هناك من شر في العالم. هات لي أي شيء وسوف أحوله لك بعصا هرمز إلى خير. كل ما في العالم خير بما فيه الفقر والمرض والعوز والألم والموت" هذا ما قاله الفيلسوف الرواقي في القرن الثاني للميلاد. ويمكن تطبيق هذا القانون على كل شيء بما فيه الاحتلال الأمريكي للعراق.

تدخل المنطقة الحقبة الأمريكية وينقسم الناس إلى فريقين من يرى في أمريكا استعمار جديد ومن يرى أنها فاتحة الديموقراطية. وهذه الرؤيا (الحدية) ضارة لأنها تنبعث من خطأ منهجي أن الألوان ليس فيها سوى أبيض وأسود. وأن الكون مركب على الثنائية. أو عندما نقول عن الشيء أنه حار وبارد وساكن ومتحرك وحامض وقلوي. فنمارس خطأ علمياً من حيث لا ندري. ومنبع الخطأ يأتي من تصور أنفسنا مركزاً للقياس ومحوراً للكون. ولم يقع العلم في خطأ أفدح من تصوره أن الأرض مركز العالم وكل من حولها يدور في حلقات دائرية مكتملة كما تصور ذلك أرسطو أن الدائرة صورة الكمال. حتى تبين أن رؤية بطليموس لا تزيد عن وهم وأن الأرض ليست مركز الكون وأن الدوران ليس على شكل دائرة بل على شكل إهليلجي (بيضوي) بما فيها دوران الإلكترون حول البروتون في قلب الذرة كما كشفها (سومر

فيلد). وما ينطبق على الفلك يصح على الفيزياء والضوء ليس أسود وأبيض بل هو طيف متدرج من الألوان بين الأحمر والأزرق استطاع نيوتن تحليله بموشور زجاجي. كما أن الحار والبارد لا يزيد عن الدرجات التي نشعر بها ودرجة الحرارة ٤٢ خطيرة على دماغنا ويجب تنزيلها ولو بمغطس ثلج ولكنها عادية عند الطيور. وتسبح الأسماك بدرجة حرارة قريبة من التجمد فلا تشعر بالقشعريرة. ونحن نرتعش بسبب تقلص العضلات المتكرر تحريراً للطاقة والدفء. ونعرف اليوم أن درجة التجمد صفر هي نزول متواضع لدرجة الحرارة والناس في كندا يبنون فنادق مؤقتة من الثلج فإذا جاء الربيع ذابت؟ واستطاع كالفن أن يصل إلى تحديد درجة البرودة القصوى نزولاً حتى ١٥ ,٢٧٣ تحت الصفر درجة تجمد الماء. أما ارتفاع الحرارة فلم يمكن تحديدها وهي على سطح الشمس ٦٠٠٠ ستة آلاف درجة وفي باطنها بضعة ملايين.

وما انطبق في الفيزياء ينطبق على الكيمياء والساكن والمتحرك، فالحموضة لا تزيد عن درجة تركيز أيونات الهدروجين في الوسط. والإلكترون يطير في غمامة حول قلب النواة بسرعة تقترب من سرعة الضوء. وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ويمكن نقل هذا القانون إلى عالم الفكر حينما تقسم الأشياء إلى صواب وخطأ وخير وشر. فكما توزعت درجة الحرارة على شكل طيف وليس على شكل استقطاب حدي، وأن الانتقال من الحار إلى البارد وبالعكس هو انتقال في (الدرجة) وليس في (الحقيقة) فيمكن فهم الوجود على هذه الصورة. والشر ليس قيمة موضوعية كما يرى عالم النفس (هادفيلد) في كتابه (علم النفس والأخلاق)، بل (وظيفة خاطئة). والوظيفة (الشريرة) "هي استعمال اندفاع (خيّر) في وقت خاطئ في مكان خاطئ نحو غاية خاطئة".

ويذهب القرآن إلى عدم اعتبار الشر شراً، بل قد يكون خيراً ﴿**لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾، كما أن كثيراً من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة

الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. كما أن المنافقين حينما يخاطبون أنهم يفسدون في الأرض يقولون إنما نحن (مصلحون)؟ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وكلمة (لا يشعرون) حقيقة اكتشفها علم النفس التحليلي وسماها (اللاشعور Subconcious).

وفي الفلسفة حيرت مشكلة الشر العقول ومعنى بناء هذا الكون المليء بالظلم وعدم الاكتمال. ولكنها مسألة يمكن فهمها ضمن (بانوراما) كونية وليس ضمن فكرة (الثنائية). فالشر ليس شراً كما يقول الفيلسوف (أبكتيتوس ٥٥- ١٣٥ م) الرواقي الذي كان لا يرى في العالم شراً مطلقاً بل درجة في الخير حسب علاقتنا به بما فيه الموت. فهذه الحياة مائدة عامرة دعانا الله إليها فإذا انتهت وجب أن نشكر صاحب الوليمة وننصرف شاكرين حامدين، لا باكين نادبين.

وهذه الفكرة تتصل بنظرة (البوذية) عن مفهوم (الصيرورة) وأن الحياة حركة فوق جسر ومن أراد الوقوف على الجسر وقف ضد تدفق مجرى الحياة وعانى. واستيعاب الصيرورة هو الذي يخلص من المعاناة. فيجب الاستسلام إلى السياق الكوني إن أردنا الوصول إلى السعادة الشاملة بدون نقص الممتدة بدون انقطاع (النيرفانا).

وقد نجح الفقهاء في استيعاب هذه المنظومة على أساس الطيف وليس الاستقطاب وتوليد أحكامهم وفق حركة ضمن طيف في خمس محطات تواترية بين أقصى الحرام مرورا بالمكروه ثم المباح وصولاً إلى المستحب وانتهاءً بالواجب. وهي حركة جداً موفقة أكثر من جعل الأحكام تتذبذب على نحو ثنائي بين الحلال والحرام، كما تتصدر العناوين بعض الكتب (الحلال والحرام في الإسلام).

والكهرباء هي حركة بين السالب والموجب وليست قراراً عند قطب فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ ولا تسبح النفس في حركة فعّالة أكثر من السباحة بين قطبي الأمل واليأس. ولا أدعى لتمثيل هذه الفكرة من رجل مطارد من جماعة تريد القبض عليه.

فأفضل ركض له هو وقوعه تحت تأثير نفسي بين الطمع بالنجاة والخوف من الوقوع في أيديهم. وتتوقف حركته طرداً مع الاقتراب من أحد قطبي اليأس والأمن. وهي محطتان ذكرهما القرآن أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وأن (لا يأمن) أهل القرى أن يأتيهم "بأسنا بياتاً وهم نائمون". فالتحرر من قطبي (الأمن) و(اليأس) هو الذي يفجر الحركة من أفضل ينابيعها طاقة. والاقتراب من أحد القطبين يعدم الحركة تدريجياً. فإذا استولى أحد الشعورين كفت الحركة عن التولد. فهي رياضيات نفسية.

وفي تحليل سياسي قام به (مالك بن نبي) في عالم الأفكار ذهب إلى أن الضلال السياسي سببه الوقوع في ذهان (الاستحالة) و(السهولة) والأشياء في طبيعتها ليست كذلك بل تسبح في طيف من الممكن والصعب والمستحيل.

والاستحالة تعني أن لا فائدة من بذل الجهد. ولكن كثيراً مما نظنه مستحيلاً هو صعب لا أكثر وهو يتطلب بذل الجهد المكافئ. كما أن بعض الأمور المستحيلة تتحول إلى ممكنة مع الزمن كما في نقل الصوت والصورة بالقوة الكهرمغناطيسية. وحين نقع في رهان الزهد بالموجود والحلم بالمستحيل نرسل عقولنا معطلة إلى إجازة مفتوحة؟

وموقف العرب من إسرائيل هو من هذا القبيل فإما كانت إسرائيل (دويلة عصابات) وإما (التنين النووي) يقذف بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ويل يومئذ للمكذبين؟ وهي ليست ذلك ولا تلك؟ وكذلك الحال مع الديناصور الأمريكي. ويمكن فهم الزلزال الأمريكي خارج منظومة زرادشت بين (أهرمان) إله الشر و(أهرمزدا) إله الخير.

وللخلاص من الأوهام العقلية الأربع لتحرير الإنسان كما قرر فرانسيس بيكون: أوهام الكهف والقبيلة والمسرح والسوق؛ فيجب النظر إلى الاحتلال الأمريكي من جانب أنه استعمار بغيض. ومن جانب أنه خير. وبين أن تستغِل أو أن تُستغَل شعرة. والفرق بين الزنا والاغتصاب والزواج أقل من شعرة فهي ممارَسة جنسية على جميع

الأحوال، ولكن بين السرية والإكراه والرضا. وفي يوم احتلت أمريكا اليابان وألمانيا. وروى لي الفيلسوف فيندوف من مدينة آخن من ألمانيا كيف جاع الألمان بعد الحرب فأكلوا لحاء الشجر وطبخوا أعشاب الأرض ولم يكن يملك أحدهم في جيبه شروى نقير. واليوم يحلق اليورو إلى سحب الغمام وتملك اليابان أضخم احتياطي من الدولار ٤٦٢ مليار مقابل ٨٠ مليار لأمريكا كما أوردته مجلة درشبيجل الألمانية.

وكان سقراط ينظر إلى ذباب الخيل أنه يهيج الخيل فيطرد عنها الخمول. ورأى (توينبي) المؤرخ البريطاني مصيبة إسرائيل أنها رحمة للعرب كي تخلق عندهم تحدي النهوض. ولا تتحول الدودة إلى فراشة فتطير بدون معاناة تمزيق السجف. ولا تتم ولادة بدون كرب ودماء. ولا أطهر من النار لتنقية المعدن من الشوائب. ولقد خلقنا الإنسان في كبد.

القانون الثالث عشر (١٣)

هواية صيد الكتب؟

عليك أيها القارئ الدؤوب أن تكون صياداً للكتب، ولو بلغة الماندرين واليابان والطليان والسويد والفرنسيس والجرمان، وعليك بمطاردة كنوز المعرفة بدون رحمة وتخاذل، ومثلاً على ذلك ما تعاونا عليه وأخي الفيلسوف البليهي فقد استطعنا أن نظفر بكتاب الطب التجريبي لكلود برنار بعد بحث ربع قرن، وكان ذلك بعد أن وقعنا على نسخة منه في مكتبة الإسكندرية، فقمنا بتصويره وأخذنا منه فوراً أكثر من نسخة، وهذا التبادل الثقافي ميسر الآن، وهو صور من عندي كتاب الخواطر لباسكال، وأنا بدوري صورت منه كتاب الشيفرة الكونية؟

وهناك من الكتب ما لا يمكن العثور عليها في أي مكان؟ فوجب أخذ صورة عنه فور وقوع الكتاب في اليد كما في كتاب "الإنسان يبحث عن المعنى" لعالم النفس النمساوي فيكتور فرانكل.

ويجب أن تعلم أن المعرفة الإنسانية كم هائل اليوم؛ فوجب فرز المعلومات بسرعة، وتوظيف الوقت للفكر الإنساني الهادي إلى صراط مستقيم، وهذا يتم كما قلنا بجهد عشر سنين عجافٍ تنتهي سمانا.

الناس مذاهب في الهوايات والصيد، ومنهم من يأتيهم رزقهم بكرة وعشياً فلا يأكلون من طعام الكتب إلا اللمم من هدايا الكتب؟

ولقد سمعت عن أناس يذهبون خصيصاً لتونس والإمارات من أجل الصيد، ولكن صيادي الكتب يعتبرون أكبر غزال، وأعظم لؤلؤة بدون غطس وبحث هي صيد الكتب.

وأنا شخصياً حين أزور أي شخص للمرة الأولى أدير بصري في بيته هل عنده من كتاب؟ أو إذا اجتمعت بمثقف ما هي أخبار سوق الكتب فهم أهم من السياسة وأخبارها من ضرب قتل نسف تحطم قطار وسقطت طائرة؟

ذلك أن المكتبة في المنزل تروي حكاية وجود عقل في البيت، وقد يتعجب القارئ لو قلت له إنني نشأت في بيت ليس فيه كتاب واحد، فوالدي كان بالكاد يفك الخط ما يسجل به حساباته، ويكتب رسائله بخط مائل كبير، وربما رأيته مرة أو مرة في دكانه وهو يقرأ جريدة، وكانت أفضل أحلامه زيادة ثروته قليلاً ؟؟ فلم يحظ بالعلم ولا الثروة والواحدة تجر الثانية.

ولا أعرف أنا شخصياً من أين تسلط علي شيطان، أو بالأصح، ملاك القراءة، وبدأت منذ نعومة أظفاري فكنت اشتري بالمال القليل (الخرجية) قصص شكسبير من دكان أحمد الكيزاوي في القامشلي؟

وما زالت هذه متعتي في الحياة وكانت زوجتي رحمها الله من هذا النوع فلم تطلب مني يوما فستاناً ودكاناً، ولا مالاً وعقاراً ومتاعاً، بل متعتها كتاب ومقالة، ولقاء مع شخصية علمية، وخبر من خزائن العلم وبيوت المعرفة، عليها رحمة الله حتى اجتمع بها في جنات الخلد برحمة الرحمان.

ويوم السعادة عندي كتاب جديد لذيذ أقرأه أو تسطير مقالة إبداعية، ما دعا علماء النفس تسميتها النشوة بدون مورفين؟

وكانت الحرب علي شديدة في التعلم والبناء المعرفي، وفي يوم اعترض علي أحدهم حفظي للقرآن وقوفاً بزعمه لابد من الجلوس، وقال ثاني من أقربائي انتبه لنفسك فمن يقرأ يجنّ (لاتلق باللهجة الماردلية من حيث نشأت).

وكان نصف الأمي نصف المثقف عم لي اسمه زكي وكان ذكياً غنياً فدعاني مرة للقراءة من متكتبته فكانت بضع كتب من مجلة العربي الكويتي فانكببت على التهامهما.

وأذكر السخرية اللاذعة التي كانت تنالني ممن حولي حين بدأت في كتابة القصص الأولى، فكففت واستغنيت وتوقفت عن الكتابة.

وأذكر جيداً من طفولتي وأنا أدفع ربع ليرة لزميلي في المدرسة أن يتنازل عن قصته التي توزعها علينا مكتبة المدرسة كل أسبوع فكنت أقرأ قصتين في الأسبوع واحدة مدفوعة الثمن من جيبي؟

وبدأت في تعلم النجارة فعملت خزانة كتب ثم بدأت بجمع الكتب، وما زلت وفي اصطياد غاليها، وأذكر جيداً من حلب مكتبة عجان الحديد صاحب المكتبة العجيبة فليس ثمة كتاب في الشرق إلا وهو عند الحلبي عجان الحديد نسخة منه أعني كتب التراث وليس المعاصرة وليس في مقدوره؟ وهناك العديد من الكتب التي تقع تحت يدي لا تجد لها نسخة أخرى في السوق بعد فترة؟ نموذج ذلك كتاب تحليل الخلق لعالم النفس هدفيلد فقد وقع تحت يدي قبل أكثر من ثلاثين سنة فأخذ صديقي البليهي نسخة مصورة عنه وهو من أجود ما كتب وترجم من علم النفس.

(١٤) القانون الرابع عشر

الخبير في الكتب

يشبه خبير اللؤلؤ البحريني وصاقل الألماس الهولندي، فيقلب الكتاب بسرعة وفي دقائق؛ فيقول يبدو أنه دسم فلنتجرأ ونشتري، مع هذا فكثرة الكتب ليست الدليل على سمو التفكير، ومن ملأ بيته بكتب السحر تحول إلى ساحر، وبيت الإنسان مؤشر عقله هل فيه مكتبة وكتب؟

وإن كانت فهل هي مذهبة الأعقاب جيدة التصفيف؟ أم أنها منوعة الأحجام والألوان فيها من الأسماء أجنبية أكثر من العربية؟

لقد عمد بعضهم إلى وضع ورق جدران على شكل كتب بدون كتب، وفي القرآن: الحمار الذي يحمل الكتب على ظهره لا يستفيد منها؟

قال الرب: ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين** ﴾؟

وفي القرآن تتعدد الأمثلة بين الحمار والكلب والبعوضة والنحلة والذبابة، بين حمار ينهق فيقلق، وكلب يلهث إن حملت عليه أم لم تحمل، وبعوضة ليس في سلم المخلوقات ما هو أدنى منها فيضرب الرب المثل بعوضة فما فوقها، ونحلة تأوي إلى الجبل ومما يعرشون يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه في شفاء للناس، وذبابة نحتقرها يتحدى الرب البشر أن يخلقوا مثلها لينتهي بجملة مزلزلة: ضعف الطالب والمطلوب.

أهمية الأمثلة هي النزول للطبيعة وتحريكها أمام العقل ليتأمل، كما رأى ذلك فيلسوف التاريخ شبنجلر أن الكل يرى في الجزء والمعجزة في أبسط أشكالها وأبسط الإنتاج يدل على المصنع؟ وليس ماحدث لجماعة شهود يهوه الذين يزينون لأتباعهم أنها مكان ضعف في القرآن، والقرآن يجيب فيقول: ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾.

والقرآن في مكان آخر يقول وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون، بل تجرأ عراقي فسأل في موقع الحوار المتمدن فزعم لي أن في القرآن أخطاء لغوية فقلت في نفسي لقد خرج علينا ولا شك جاحظ القرن العشرين وسيبويه القرن الواحد والعشرين.

ومنذ زمن بعيد حاول كثير أن يجدوا الثغرات والمتناقضات فخرجوا منه بالإيمان به، وأنا شخصيا أملأ روحي كل يوم من هذه الطاقة التي لا تنضب الكتاب والذكر الحكيم فأقرأ ما شاء لي الرحمن فأشحن روحي المتعبة من هموم الحياة بروح وريحان وجنة نعيم.

خبرة معرفة الكتاب تأتي من خبرة طويلة وتمحيص آلاف الكتب من ذخائر الفكر الإنساني المنوع بالطول والعرض والعمق، يصبح المتمرس خبيراً ماهراً يعرف دسامة الكتاب من ركاكته وتهافته؟

أذكر نفسي جيداً في مسجد الفرقان في حلب حين وقع تحت يدي كتاب محنة ثقافة مزروة، فقرأته في ساعات في أقل من ليلة واحدة. وفي باريس وقع تحت يدي كتاب باتريك سيل عن سوريا الحديثة وهو ٨٠٠ صفحة فتركت كل شيء وقرأته في يومين؟ ووقع تحت يدي يوما كتاب شينتارو أيشيهارا عن اليابان أنها تقول لأمريكا لا فقراته في يومين؟ وهكذا تنتزع الإنسان من هدوئه تلك الكتب الرائعة.

وأنا رجل أؤمن بذخيرة الفكر أنه يجب تنميها دوما ولذا أراجع الإفكار الجيدة من الكتب الجيدة دوما، واليوم كنت أقرأ في كتاب ساعات القدر للمؤلف النمساوي عن الساعات الحرجة التي قررت مصائر أمم وشعوب ومعارك فقرأت خلاصة أفكار من الصفحة الأولى وهي عادتي مع الكتب الجيدة وكتاب ساعات القدر يروي ١٤ قصة من الساعات الحاسمة في تاريخ الإنسانية ولقد أضاف لذخيرتي من أسرار التاريخ الشيء الجديد، وعرفت مثلا سر سقوط القسطنطينية بيد العثمانين من باب مهمل، وقصة سايروس فيلد الذي ربط أوربا بأمريكا بكابل تحت البحر الأطلسي في ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ فشل فيها عدة مرات ولكن نجح في الأخير، وكذلك سر

هزيمة نابليون في واترلو من جنرال لم يحسن التصرف فخذله في ساعة العسرة، أو ذلك الفريق الذي اكتشف القطب الجنوبي وما خط من كلمات خالدات في اللحظات الأخيرات. . .

من امتلك الخبرة قلب الكتاب في دقائق ثم قال هنا علم يجب العكوف عليه؟

القانون الخامس عشر (١٥)

أمكنة الإنتاج المعرفي

أمكنة الإنتاج المعرفي غربية أو مترجمة شرقية في معظمها؟ فلا تحزن أخي؟ لأن الإنتاج المعرفي في معظمه غربي فوجب التعرف ومسح العصر، وأنا أقلب في الكتاب لأعرف المؤلف؟ فإن كان أجنبياً قلت ربما فيه خير وتعب، وليس أكيداً، والعكس بالعكس، وكتاب عبد الستار إبراهيم في علم النفس، ومحمد عزام في فلسفة العلوم والابستمولوجيا، ووحدة المعرفة لمحمد كامل حسين، وميلاد مجتمع لمالك بن نبي، ومن سرق الجامع للنيهوم، ووعاظ السلاطين للوردي درر بهيجة للمعرفة.

ولكن قصور الثقافة العربية جعلنا متوقفين في مربع الزمن لا ننتج فضلاً عن الاطلاع على ما ينتج؟

ومن يكتب في الصحافة كثيرون ولكن لا قلمهم سديد ولا هامش الكتابة يتسع للجديد؟ ومنه كان على الكاتب أن يتبع حكمة ديكارت القديمة فيقول قولاً لايوقظ نائماً ولا يزعج مستيقظاً.

أذكر من ألمانيا جيداً تلك الواقعة التي حدثت معي مع الجراح كارل توما الشرس أنني كنت قد أمضيت في نظام ما سمي بالدراسات العليا في مشفى المواساة في دمشق التابع لكلية الطب وأنا أظن في نفسي أنني أعمل في أرفع مستوى لاكتشف بنفسي أن المشفى الجامعي في بلدي لا يقترب من أصغر مشفى في أوبرفرانكن في بافاريا

(Oberfranken - Bavaria) وهو اعتراف مؤلم ولكن لابد منه فليس مثل الحقائق الموجعة سبباً لليقظة؟ أذكر حينما ساعدته ومعي خبرة سنتان في الجراحة أنني لم أتعلم بعد أصول العقدة الجراحية، ثم عرفت من جديد أن كل أمر هناك له تقاليده وكتبه في علم المنحلة والدباغة إلى الجراحة والخياطة فكله مستوى مختلف، وهذا أمر يجب الانتباه له في عملية البناء الحضاري، أن الحضارة ليست شراء أشياء الحضارة ولو توفر المال، وهذه فكرة استفدناها من مالك بن نبي حين فرق بين القدرة الحضارية وشراء منتجات الحضارة، فضرب مثلاً في ذلك أن أمريكا لا تستطيع شراء مدينة واحدة من مدنها لو أرادت ولكن لو تهدمت مئة مدينة فيمكن لأمريكا أو ألمانيا أن تعيد بناءها فهذا هو الفرق الجلي بين قدرة الحضارة وأشياء الحضارة؟

وهذا يقودنا إلى عدد من الأفكار الأولى أن العصر الذي نعيش فيه ليس من صنع أيدينا ولذا فهو لنا مثل عالم سندباد والجني الأزرق؟ والأمر الثاني اختلاط الأمر علينا بين الشراء والبناء، فنظن أننا لو اشترينا طيارة أو سيارة أو كلفنا شركة ببناء مشفى فقد بنينا الحضارة وهذا همّ كبير يجب التحرر منه، وهذا أيضاً الذي لفت نظري في مشافي عملت فيها فترة طويلة فكانت في البداية ألماسة تلمع وبعد عقد من الزمن توحلت إلى كارثة تلسع؟

والسر في هذا هو أن الحضارة ثلاث كلمات: الإبداع والخلق، ثم الصيانة، وثالثاً التطوير.

فهذه مشعرات ومؤكدات الوجود الحضاري؟

فإذا أردنا التأكد من وجودنا في السلم الحضاري فلننظر هل نستطيع صيانة الأشياء التي نشتريها وهل نحافظ عليها سليمة تعمل أم هل يمكن لنا أن ننتج مثلها وأفضل؟ أم هل يمكن تطوير الآلة التي اشتريناها؟ أم أننا ندمر ولا نحافظ على الأشياء التي بين يدينا فهذه مؤشرات مهمة جداً على الصحة والمرض.

الخلاصة التي انتهي إليها أن أمكنة الإنتاج المعرفية غربية في معظمها، فوجب علينا أن نتعلم لغة أجنبية ونعلم أبناءنا أن يتقنوها ليس مثلنا مكسورة بلحن غريب، بل

يسكون بزمامها مثل أحد أولادها، وأنا شخصياً مشيت في هذا التقليد وأتقنت الألمانية وأقرأ فيها كل يوم، وبناتي وأحفادي في البيت يتكلمون ثلاث لغات بكل بساطة مع التمكن؟

بل لقد وقع تحت قراءتي أن عالمة من إسرائيل فازت أو ستفوز بجائزة نوبل للعلوم وأظنها من جامعة حيفا، وأن التفوق الإسرائيلي أساسه العلم، وهو أمر لن يستمر إلى قيام الساعة بل سيحيق بهم ماكانوا به يستهزئون؟

بمعنى أن قوة إسرائيل هي من البناء العلمي وهي جيب غربي ومشروع استيطاني كما فعل الأوربيون مع سكان الأمريكيتين؟ وأن العالم العربي لم يدخل محراب العلم؛ مما دفعني أن أعكف على موسوعة كاملة بعنوان الطب محراب للإيمان.

القانون السادس عشر (١٦)

مؤسسات التفكير الإسلامي (Think - Tanks) لتنشيط مفاصل الفكر في العالم العربي

لقد حاول المعهد العالمي للفكر الإسلامي قفزة من هذا النوع على يد إسماعيل الفاروقي، وكذلك اقترح أبو شقة مجمعة خبراء علم الاجتماع، ومن جملة ما أشجع عليه مشروع الجينوم القرآني؛ فأقترحه على كل مقتدر، لتطوير هذا المشروع في إخراج تفسير قرآني عصري بالصوت والصورة، واعتماد أدوات العلوم الإنسانية المساعدة، فلا يمكن فتح جمجمة مريض بأدوات فرعونية جراحية، وهذا المشروع بدأ به الألمان فسبقونا، ورصدوا له ملايين اليورو، وشكلت له لجنتان واحدة للمعلومات، في كل ما يتعلق بالقرآن على شكل بنك معلومات، والأخرى في تحليل وفرز المعلومات، بالطبع بدون أي تابو.

(١٧) القانون السابع عشر

ويبقى قانون ابن سينا مع النوم دليلاً

إذا قرأت فلم يفتح الله عليك، فأعط التعليمات إلى دماغك الذي لا يعرف النوم بالاشتغال على البحث، فقد كان عويص المسائل يفتح على ابن سينا ليس في اليقظة بل في النوم ومع الحلم، فيستيقظ وقد انجلت المسألة، ذلك أن الدماغ يبقى في حالة عمل، ولكنه ينقل نشاطه من مجال إلى مجال أثناء النوم، ولذا كانت المنامات حالة نشاط الدماغ في حقل خفي لا يعرف عنه العلم كثيراً. .

وحين يغلق عليك فهم كتاب ونص فاصبر صبراً جميلا، واتركه للدماغ يعمل عليه بهدوء، فقط اعط التعليمات للدماغ، ثم اذهب واسترح، وأدي نشاطاً مختلفاً ولو سباحة ورياضة حمل أثقال؛ فالدماغ لا يعبأ بذلك بل يسلك سبل ربه ذللاً.

كما حدث معي مع أول قراءة في كتاب نديم الجسر في كتابه قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، فقد كان القسم الفلسفي صعب لم يفتح لي بسرعة ولأول مرة، وحين استعنت بأستاذ الفلسفة كان يتظاهر بأنه فهم ويشرح وأنا أعرف أنه لم يفهم شيئاً، وحين اجتمعت به بعد ثلاثين سنة كان مكانك راوح؟

(١٨) القانون الثامن عشر

قانون ينابيع المعرفة أو قانون ديكارت

لا تقرأ ما يكتب عن العظماء، ولكن ما خط يراعهم هم بالذات، وإذا أردت البناء المعرفي فامض إلى المصادر الأساسية.

وكل من أسلم من الغربيين لم يقرؤوا التفاسير، بل مضوا إلى القرآن مباشرة، فذهلوا من التحليق فوق إحداثيات الزمان والمكان والأشخاص، وهو ما أشار له سيد قطب عند قوله تعالى: ﴿ **وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ أن الكلمات تشي

بطبيعة فوق أرضية، فما معنى البر والبحر وورقة الحب والرطب واليابس والظلمات في جملة واحدة؟

وكذلك حصل مع إسلام (جيفري لانج) أستاذ الرياضيات الأمريكي و(يوسف إسلام) المغني البريطاني (كات ستيفنس)؛ فلفت نظره منذ مدخل الكتاب أنه ليس ثمة مؤلف.

القانون التاسع عشر (١٩)

قانون اللغتين

فيقول إنه لا يكفي أن يقرأ الإنسان بلغة واحدة، حتى لو كانت ترجمات جيدة، بل لابد من الرجوع إلى الينابيع وبلغتها، هذا لمن أنعم الله عليه فأتقن، وهي مهمة شاقة، خاصة من تعلمها على كبر، فمن فاتته هذه المكرمة فعليه بالنهل من الثقافة الأجنبية لأن المعرفة تنتج هناك ونحن توقفنا منذ عصر المماليك الشراكسة أيام سعيد جقمق، كما أرخ بذلك لهذه النهاية ابن خلدون من الانطفاء الكامل والخسوف الكلي، أو ابن الخطيب في شعره: كنا عظاما فصرنا عظاما!!

ويذهب مالك بن نبي في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) إلى تفسير رائع في جدوى معركة أنقرة عام ١٤٠٢م تلك التي وضعت حداً للاندفاع العثماني لاحتلال أوربا بسيف تيمورلنك، وكانت كلا القوتين إسلاميتين؟

القانون العشرون (٢٠)

المسح الراداري للعصر

إن درس التاريخ أكثر من رائع وينفعنا فيه قانون الغزالي عن المسح الراداري للعصر، ففي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي كان العالم الإسلامي ينهار واكتمل

الانهيار في منتصف القرن الثاني عشر بقرني الخلافة: في الغرب إشبيلية عام ١٢٤٨م بالمنجل الصليبي، وفي الشرق بغداد تجرف بالحصادة المغولية عام ١٢٥٨م.

وفي هذا الوقت العصيب ولد الغزالي فارتسمت معاناة القرن في مخيلته، وأدرك أن الانهيار الخلقي والعقلي هو أرضية الانهيار السياسي، فصدم واعتزل ثم خرج، وكتب المنقذ من الضلال يمسح أهم أربع تيارات في عصره: المتكلمة والفلاسفة والباطنية والمتصوفة.

وكتب تهافت الفلاسفة، ليأتيه الجواب من الغرب في تهافت التهافت من ابن رشد.

كما هو الحال بين نقد العقل في المغرب على يد الجابري، ليأتيه الرد في نقد النقد من الطرابيشي المشرقي. وكلاهما جهد مزّكى ومحترم.

وفي الوقت الراهن ومن خلال عرض هذا الكم الضخم من العمل الموسوعي فهو يهدف إلى مسح العصر بعد أن لم يبق أربع اتجاهات بل لا يقل عن أربعين اتجاهاً تحتاج إلى عشرة مضغوطين في واحد من أمثال الغزالي القديم؟

القانون الحادي والعشرون (٢١)

قانون المدارس المعرفية

ففي القراءة يجب الانتباه إلى التكوين العقلي لكل كاتب هل هو كاتب وكتاب أم منهج ومدرسة، فقد يكون كتاب واحد ولكن مؤسس جداً، وقد يكون عادياً تكفيه القراءة الواحدة، وقد يكون خلفه مدرسة كما في عالم الاجتماع العراقي، ومالك بن نبي صاحب دراسات مشكلات الحضارة، والشحرور الشامي، وجودت سعيد داعية اللاعنف السوري، والفيلسوف المعرفي السعودي البليهي، والنيهوم الليبي، وعلي حرب اللبناني، والجابري المغربي، وفؤاد زكريا المصري. وهي عينات وليست نهاية الأشياء والعلوم، فالعالم العربي فيه عشرات العقول المبدعة، ولكن الاتجاه العام للعلم كنسق معرفي لم يتشكل بعد في العالم العربي.

القانون الثاني والعشرون (٢٢)

قانون العودة للطفولة مع الفلسفة

الطفل يضع الأسئلة الضخمة كالجبال، لماذا نولد أين نذهب من أين نأتي ويتكلم الطفل بعفوية ويراقب بروح الدهشة والفضول فيتعرف في المحطة والقطار على من حوله من الآباء العابسين، حتى يصاب بعدوى المرض فينكمش وينطفئ.

والفلسفة هي تلك الروح الطفولية من التعلم وعدم الكف عن السؤال وبدون خوف؟

القانون الثالث والعشرون (٢٣)

قانون الكم التراكمي والتغير النوعي

أكاد لا أصدق نفسي أحياناً وأنا أستعرض كم الكتب الجيدة التي قرأتها منذ نعومة أظفاري، وبعضها ضاع؛ فأنا عليه حزين، وبقي في الذاكرة منطبعاً؛ فهي مكتبتي؟ هكذا أنا أكتشف نفسي مع استعراضي للكتب في هذه المحاضرة، وأقول يا سبحان الله.

ولكن من يأتي بعدنا يجب أن يتجاوزنا ويبتسم لسذاجتنا الفكرية أو سبقنا في بعض الحقول المعرفية، كما نعترف لابن خلدون بعد مرور ستة قرون على كتابته، بحيث يعتبره توينبي المؤرخ البريطاني أن عمله أعظم عمل أنتجه أي عقل في أي زمان ومكان.

وكذلك الحال في الكم المعرفي المتراكم؛ فمن واظب بنى نفسه معرفياً بدون توقف، فوصل عتبات من المعرفة رائعة، وعوالم بهيجة من الفكر، مثل من اعتلى جبلاً ورأى المناظر أمامه من علو.

وكذلك الإشراف المعرفي بعد تحليق رحلة أربعين عاماً مع الكتب في مغامرات وادي الأفكار؟

القانون الرابع والعشرون (٢٤)

قانون خمسة آلاف كتاب

حتى تؤلف كتابا اقرأ خمسة آلاف

يعتبر ابن خلدون أن كمية من حفظ عشرة آلاف بيت من الشعر تدخل المرء مملكة الشعر فتفيض القوافي من جنانه على لسانه.

ولم يتحسن بياني ونطقي أنا شخصيا إلا بعد حفظ القرآن، ولهجتي بنطقي الأقرب للفصحى، يحتار فيها من يسمعني من أين بلد أنا؟ ولو تكلمت اللهجة الماردلية، من حيث ولدت وترعرعت ما فهمني أحد قط، ومع حفظ القرآن استقام لساني مع القواعد، وكانت كريهة بغيضة لقلبي من ذكريات أستاذ كان يجلدنا ونحن طلاب ابتدائي للنحو والصرف.

ولم يكن ديورانت صاحب موسوعة قصة الحضارة يكتب مجلداً من مجلداته الأربعين، إلا بعد قراءة خمسة آلاف كتاب، وزيارة علمية لمنطقة الحضارة من هند وصين وطليان وعرب ويابان.

وكذلك فعل محمد عنان في موسوعته حول التاريخ الأندلسي وشمال أفريقيا من مرابطين وموحدين وتاشفين وأبو يعقوب.

وروى لي جودت سعيد ملازمته للمكتبة الوطنية في القاهرة عشر سنين بعشر ساعات يوميا، في لذة لا تعدلها لذة.

وكذلك حبس نفسه كارل ماركس في مكتبة لندن عشر سنين قبل أن يخرج بكتاب رأس المال.

ولم تكن مقدمة ابن خلدون لتظهر للسطح لولا العزلة في قلعة عريف في المغرب.

وكذلك فعل عبد الحليم أبو شقة في كتابه موسوعة تحرير المرأة في عصر الرسالة فاكتشف حقولا مجهولة في قضايا المرأة كنت أنا وزوجتي رحمها الله ممن استفاد منه جداً.

القانون الخامس والعشرون (٢٥)

دعوة المقتدرين إلى ثلاث

طباعة هذه المحاضرات على شكل كتب توزع مجانا أو بسعر الكلفة.

ـ ترجمة ذخائر الفكر فلا نهضة بدون ترجمة، ومنها مجموعات الكرونيك الرائعة، ورصد جزء خاص عن تاريخ الإسلام كما فعلوا في تاريخ المسيحية.

إن اليابان لم تكن لتنهض بدون فتحها للعلم أياً كان مصدره، فالعلم تراكم وذخيرة إنسانية وليست نتاجاً غربياً، بل عملاً تراكمياً عبر ستة آلاف سنة بعد بناء الحضارة واختراع الكتابة.

وهو ما أشارت إليه فواتح السور بالحرف، فالحرف كتابة، والكتابة هي الذاكرة الجديدة للإنسانية التي لا تبلى.

وحالياً يوجد مشاريع لإيداع ثمرات الأقلام وإبداع العقول، على شكل مايكروفيلم في صدوع الجبال الرواسي في فرايبورج في ألمانيا، أو حتى التفكير في إيداعها على ظهر القمر، فيما لو تعرضت الحضارة الإنسانية لخطر الانمحاق والزوال فتكتشف من كائنات ذكية أخرى.

ـ مشروع الجينوم القرآني الذي سبقنا إليه الألمان في مشروع ماموت يستغرق ١٨ سنة حتى عام ٢٠٢٥ في تبني وإخراج ثلاث أمور:

ـ مشروع الأحاديث الحيوية وإن أمكن بطريق الكارتون.

ـ مشروع تفسير عصري بالصوت والصورة مع استخدام العلوم الإنسانية المساعدة.

ـ إنتاج عصري بالكارتون للسيرة في وجه ما فعل الحاقدون في الدنمرك.

القانون السادس والعشرون (٢٦)

مدارس مزعجة أو غير مرحب بها

أو هي في عين بعضهم خطيرة مضللة

هناك بعض المدارس التي قد تزعج مثل الشحرور وجمال البنا والنيهوم والجابري والوردي وجودت سعيد وابن نبي والنبهاني وشريعتي وراسل، ولكنها تبقى مدارس يجب الاطلاع عليها كما فعل الغزالي في فكرة المسح الراداري؟ راجع الفكرة٢٠ عند الغزالي.

- والأمر الثاني هناك مصادر باللغات الأجنبية لابد من اختراقها، ولكنها من أبدع ما سطره يراع الإنسان.

القانون السابع والعشرون (٢٧)

السفسطائيون أو مشاريع تبسيط العلوم وتحبيب المعرفة للأطفال لإنتاج جيل من العباقرة

حرصت منذ أربعين سنة في غوص أعماق محيطات المعرفة لوضع اليد على درر المعرفة، ثم محاولة إخراج الإنتاج المعرفي، على شكل موسوعة معرفية تضم نحو عشرين فرعاً معرفياً، من فيزياء الجزئيات دون الذرية، والفلسفة رحم العلوم، مروراً بعلوم الألسنيات والأنثروبولوجيا على خطى الإنسان، وانتهاء بالتاريخ وعلم النفس وعلوم المجرات ومستقبل الكون والخيال العلمي، بلغة بسيطة تجمع بين جمال الأدب ودسامة المعلومات كل ذلك معطر بروح القرآن. ولقد استفدت من عالم الاجتماع العراقي الوردي في قوله إن عمل السفسطائيين قديماً في أثينا لم يكن تزويق الحقائق، بل تبسيط المعرفة للناس ونقلها بأدوات مفهومة.

القانون الثامن والعشرون (٢٨)

الثقافة الموسوعية

علينا أن نبني عند أطفالنا ثلاثاً: روح البحث بدون ملل، والسؤال بدون خوف، والانفتاح المعرفي بدون حدود. وأن نترك للطفل روح الاستغراق والفضول ونهم التعرف والتعلم فلا نقتل إمكانياته بالرباعي: ما في، ما يصير، ممنوع، وحرام.

وهذه تأتي من خلال المعرفة الموسوعية، في أبعاد المادة والفيزياء الذرية، وتراكيب السدم، وتضاعيف النفس، واختلاف المجتمعات وتباين الثقافات، وتنوع الألسنة.

يجب أن نبني المعرفة الموسوعية طبقاً عن طبق، بآلية الحذف والإضافة، بدون خوف من أي علم؛ فما كان باطلاً رددناه، وما كان تافهاً أهملناه، وما كان ثرياً استوعبناه، وأضفناه إلى تراكيبنا المعرفية.

علم من علم وجهل من جهل.

والمعرفة الموضوعية ذهب خالص، تصرف في أي سوق فكرية، والقرآن كون قائم بذاته، لا يناله الزمن والبلى؛ فيجب أن لا نخاف عليه، بل نخاف على أنفسنا، وكل الأمان بالتسلح بمفاهيمه.

القانون التاسع والعشرون (٢٩)

ملء الثغرات المعرفية في مدى عشرين سنة من الكدح المعرفي

بعد رحلة السنوات العشر، وتحقيق مئة ألف وحدة معرفية، يتم الانتقال إلى العقد الثاني من الكدح المعرفي في رحلة الوصول إلى النور الإلهي، فيجب أن يسأل الإنسان نفسه: ما الشيء الجديد الذي يجب أن أعرفه؟ أنا شخصيا سألت نفسي كثيراً مثلاً عن ثغرة التاريخ الروماني؟ أو فترة الحكم العثماني والمماليك وعصر نابليون؟ أو نقد العقل الخالص لإيمانويل كانط؟ أو ما هي الديمقراطية؟ والبرمجة اللغوية العصبية؟ وزوال

مغناطيسية الأرض؟ وتيارات النينو في المحيط؟ ولماذا يحدث التسونامي؟ ونفسيات الشعوب؟ وهل يطعن الثور الأسباني الخرقة أم المصارع؟ ولماذا تدفق الإسلام في القرن السابع الميلادي؟ وليس قبل ذلك أو بعده؟ إلى عشرات الأسئلة المغايرة والمشابهة؟

وهكذا أمام كل ثغرة أحاول استحضار الكتب والشغل عليها؟

فكانط فهمني ديورانت جدله، ومجلة الشبيجل الألمانية نقلت لي بأقلام عشرات الباحثين مفاهيم السيطرة والانصياع، والتسونامي وإنسان نياندرتال؟ وتعرفت عن طريق قناة الديسكفري إلى خطر زوال مغناطيسية الأرض، وموت الكوكب كما مات المريخ قبل خمسة مليارات سنة.

أما التاريخ الأندلسي فموسوعة عنان في سبع مجلدات قرأتها في ستة أشهر.

وأما التاريخ اليوناني والروماني فقصة الحضارة لويل ديورانت، والبرمجة العصبية اللغوية كتاب التكريتي فهمني أسرارها وحل لي عقدها؟

أما عبد الرحيم بدر فخرقت معه النسبية بنسبية، ومع قرني الفيزياء من الكوانتوم والنسبية كان كتاب ستيفن هوكينج في (قصة قصيرة للزمن) خير صديق ونعم الأنيس.

القانون الثلاثون (٣٠)

الحجج المعرفية، بمعنى النضج المعرفي والرسوخ العلمي، وبتعبير القرآن والراسخون في العلم يقولون كل من عند الله

وهذا يأتي في العقد الثالث من الكدح المعرفي، عندها ومع النضج تتوالى المؤلفات والمراجع وترشد الأمة برشد أبنائها، وهو ما فعله المصطفى ﷺ بتربية جيل كامل على مدى ثلاث عقود فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وديناميكية هذا الفعل هو أن من نضج واستوى على سوقه بقراءة خمسة آلاف كتاب ومرجع يصبح حجة في العلم ونحن ما ينقصنا هم الخبراء، والخبراء الناضجون بين الاطلاع الواسع والخبرة الميدانية الكثيفة.

وكما كان الحال في الطب فحتى يخرج الاستشاري المتمكن يحتاج إلى رحلة ثلاث عقود كذلك كان الحال في النضج الثقافي.

والمثقف هو من غادر حقل التخصص وبدأ في قراءة شيء لا يعمل في حقله، فيفاجئ بتدفق الأفكار من الحقول الجديدة نفسها على الغرار نفسه.

والمهم في الرسوخ أن يتم إنتاج أدمغة ممتازة في كل حقل معرفي، والعلماء هم الكادر الذي يقي الأمة من الانهيار، لأن عناصر التغيير هي ثلاث: أفكار يملح بها المجتمع، وشخصيات ناضجة، ومؤسسات مدنية علمية فعالة، فكما يقضى على الأمراض بثلاث من طاقم فني (أطباء وفنيين وممرضات) ومؤسسات (مشافي ومخابر) ووعي صحي، كذلك الحال في كل قطاع من الاقتصاد إلى السياسة.

القانون الواحد والثلاثون (٣١)

مجموعة الأفلام الراقية

تحدثنا عن الكتب والأفكار وأحد روافد الفكر الهامة هي الإنفوميديا وأهمها التلفزيون وبرامجه بين إباحية ورقص وعلم ووثائق فهو يضم الغث والسمين والعسل والسم.

وأنا أقترح بناء مراكز علمية تجمع أجمل الأفلام وأهم الوثائق لتموين عقول الشباب بأفضل ما جادت به السينما، وأنا شخصياً عندي الآلاف من الأفلام بلغات شتى ومواضيع منوعة وهي من أجمل مصادر تخصيب العقل وإمتاعه.

القانون الثاني والثلاثون (٣٢)

تطويع الفنون

من كارتون وفوتو شوب وكاريكاتير للقلم والكتاب، بل وكتابة أنيميشين لقصص تاريخنا، مثل مونت كريستو وروبنسون كروزو وما شابه.

وحرب الدنمرك بأفلام الكاريكاتير يجب أن تكون بأسلحتهم نفسها، كما كان يفعل المصطفى ﷺ لحسان بن ثابت فيقول بما معناه: اهجهم وروح القدس معك.

القانون الثالث والثلاثون (٣٣)

قانون الحفظ والفهم

لا توجد آية واحدة في الإلزام بحفظ القرآن، وعكسها موجود: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون**﴾.

وعشرات الآيات تنوعت حول التدبر والفهم، أحصيت منها أكثر من ٤٢ آية، ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾، ﴿**هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾، ﴿**إن في ذلك لآيات لأولي النهى**﴾، ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾.

مع هذا فالحفظ ورطة لأنه يخلق تحدي المحافظة، أما الفهم والتدبر فهي آلية نامية غير روتينية، ومنه أشار القرآن للعلماء أن يرفعهم بالإيمان والذكر الحكيم والعلم المثمر.

وتبقى ملكة الحفظ أحد ملكات الدماغ الأساسية فوجب صقلها؛ وأنا شخصيا اشتغلت على حفظ القرآن ثماني سنين عددا أثناء دراستي للطب والشريعة معا.

القانون الرابع والثلاثون (٣٤)

قانون طوفان المعلومات مقابل شح المعلومات

ما نعاينه اليوم ليس قلة المعلومات بل انهمارها بأشد من تسونامي، وأنا شخصياً يأتيني على الانترنت يومياً أكثر من ٣٠٠ رسالة، وأول شيء أفعله ليس القراءة بل المسح، وكنا سابقا نفرح بقدوم رسالة لأحدنا، وهذا يعني سرعة الفرز واستقبال الجيد، والاستفادة من الدسم.

القانون الخامس والثلاثون (٣٥)

قانون لو كررت فكرتك عشرين مرة
وظننت أنهم فهموا عليك فأنت متفائل

حين نتكلم فإن المستمع يفهم بآلات فهمه، وهذا يعني أن الصيني لن يفهم شيئاً من الصربي إلا بحركات اليدين والسيمياء الوجهية وحركات اليدين وهي لغة عالمية ولكن محدودة جداً. أما لغة الخطاب فيجب أن تمشي حواجز فوق الحواجز من اللغة واللغة الثقافية، وهكذا فمن يسمع يؤكد ما عنده أكثر مما يتلقى من الآخر. وأذكر يوما أنني خطبت الجمعة ولما سألت أحد السامعين عما كنت أتحدث؟ قال: طبعاً كنت تتحدث عن الإسلام؟ وبالطبع لم أكن أتحدث بالكفر؟ وينقل عن حسن البنا قوله أن لا يتفاءل المرء كثيراً حين يتحدث مع الآخرين أن فكرته تنتشر، فقال لو كررتها عشرين مرة وظننت أن الآخر فهم عليك فأنت جدا متفائل. ومع أن النبي كان يتحدث بلغة قومه نفسها ولكنهم كانوا يقولون ما نفقه كثيرا مما تقول ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز.

القانون السادس والثلاثون (٣٦)

قانون المستقبل لشباب الإنترنت وجيل الكي بورد

من لا يستخدم الإنترنت نصف أمي، ومن لا يقرقع أصابعه على الكي بورد انتسب إلى عصر الديناصورات البائد.

ولذا فالأمل هو في الشباب الذي تواصل على مساحة قرية الكرة الأرضية إلكترونياً، فالعالم اليوم ديجتال يتحرك بسرعة النور ناراً.

وسوق الزواج أصبح بالنت، فلم يعد مكان للخاطبات، بل الفتاة ترى الآلاف من الشباب في الشاشة، وهو يرى آلاف الفتيات بالشاشة، وتأتي الفتاة من تايوان لتتزوج شاباً في كردستان في رحلة عشرة آلاف كيلو متر؟

القانون السابع والثلاثون (٣٧)

وأنا علمت نفسي أن لا أبخل في العلم

فأنفق بدون تردد وبسخاء لأنه أعظم استثمار

حين كنت في معرض الكمبيوتر في الرياض قبل أكثر من عشر سنين، كانت ليلى سعيد زوجتي القديسة رحمها الله برفقتي، قلت لها طابعة الليزر قيمتها ٤١٥٠ ريال أكثر من ألف دولار؟ أجابت: خالص في العلم لا تبخل على نفسك.

وحين كنت مع أستاذي جودت سعيد في الجولان نمشي باتجاه بير عجم وأنا أتأمل الفيلا الفاخرة التي بنيتها هناك قال: تأمل إن مقالة واحدة مما خطه يراعك في نظري أهم من هذه الفيلا فهذه تزول والفكر خالد.

وصدق فقد قال المسيح يوماً للحواريين: اكنزوا لكم كنوزاً في السموات حيث لا يسرق السارقون، ولا ينقب الناقبون، ولا يأكل السوس، ويفسد الصدأ. فحيث كنزك هناك قلبك.

وحين بنيت تلك الفيلا ثم اشتريت فيلا أجمل في مونتريال في كندا لم يكن يخطر أنني لن أسكن هذه ولا تلك، بل ستنتهي حياتي كما هي عند الفيلسوف البدوي في غرفة في باريس.

وأنا حالياً أعيش في مساحة ثلاثين متراً مربعاً يهمني لقيمات وصحة جيدة وحمام منعش وسرير مريح، فهذه الدنيا بحذافيرها، ولو اطمأننت على دخل تقاعدي مريح لودعت عالم الكدح بغير تردد.

القانون الثامن والثلاثون (٣٨)

الحرية ومناخ الكتابة والفهم

ليس أعظم من مناخ الحرية للكتابة، فيكتب الكاتب ما أفاض الله عليه من شآبيب الرحمة وعظيم الأفكار، وليس أتعس وأبأس من الكتابة في ظروف العبودية

والاضطهاد، فإما خبأها أو ضاعت، أو يتقرب بها ليأكل بقيمتها ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.

وليس أتعس من بيع النفس من أجل كلمة تزلف، أو خوف الاعتقال والتعذيب، أو الانتهاك والتخريب.

ولذا جرت العادة أن الأحرار يغادرون مناطق العبودية إلى شمس الحريات، كما ينهمر النهر من علو جبل، وتطير الفراشات باتجاه الجنوب مع إحداثيات مغناطيس الأرض، ولو كانت خلف بحر الظلمات

قانون إبكتيتوس Epictetus في الحرية

الفيلسوف إبكتيتوس: هل يستطيع أحد أن يكرهك على تصديق ما ليس بصدق؟

التلميذ: لا.

الفيلسوف: فهل يستطيع أحد أن يكرهك على فعل ما لاتعتقده؟

التلميذ: نعم.

الفيلسوف: وكيف ذلك؟

التلميذ: إذا هددني بالموت أو السجن؟

الفيلسوف: فإذا لم تخش من السجن أو الموت؟

التلميذ: لا يستطيع.

الفيلسوف: أنت حر حينئذ!

وإذ أعجبت هذه الفقرة كاتب ومفكر فاضل يدعي أنه من مدرسة المنطق الحيوي! (كذا) فقد أرسل إلى صديق له ترك بلاد العبودية إلى أرض الحريات، ينصحه بالقدوم تطبيقاً للقانون النفسي هذا، فيجيبه: وما يكون لنا أن نعود فيها بعد إذ نجانا الله منها!

وهذا القانون من قوانين البناء المعرفي؛ يقول إن المعرفة لا تولد إلا حيث الحريات، ولم يكن للفلسفة اليونانية أن تستيقظ لو وقعت في قبضة داريوس مع حملته المشئومة، ولم يكن للصين أن تتقدم شعرة لولا أن فتحت نفسها شعرتين.

ولا الاتحاد السوفيتي ليسقط بدون أي هجوم خارجي لولا اعتناقه وتطبيقه مبدأ الإكراه في الدين. ولا مصير ينتظر العنفيين إلا موارد الهلاك، كما حصل لفرعون وعاد وثمود ونوح ولوط وما مصير بول بوت والبيرتو فوجيموري منهم ببعيد.

القانون التاسع والثلاثون (٣٩)

تلاقح الأفكار وقانون الزوجية

إذا كان الوجود يقوم على الزوجية والجدلية؛ فهذا ينطبق أيضاً على الأفكار؛ فكما بنيت الذرة والجزيئات على علة الزوجية، وكما تلاقحت النباتات فأنبتت من كل زوج بهيج، وكما اتصل الحيوان ببعضه لينبت من ثنايا الأرحام ذرية جديدة تتابع رحلة الحياة؛ فإن الأفكار تفعل الشيء نفسه فهي تتلاقح فتتكاثر، وتنبت نسلاً جديداً، ولكن بشرط الخصوبة من الطرفين.

إذا اجتمعت فكرة (أ) مع فكرة (ب) خرجت فكرة جديدة هي (ج) وإذا تلاقحت الفكرة (ج) مع الفكرة (أ) خرجت فكرة جديدة هي (ت)، وإذا كان الاتصال الجنسي ضمن المحارم حجراً محجوراً؛ فالزواج بين الأفكار غير محاصر بحرمة الزواج من الأقارب، وبذا تتحرر الأفكار وتتوالد بسرعة انشطارية أسرع من انشطار نواة ذرة اليورانيوم في السلاح النووي، فتستعصي على الفناء، وتشق طرقاً جديدة دوماً بعناد ودهاء، وتصمد أمام كل شروط تحنيطها وقتلها، وهو سر اندفاع البشرية دوماً نحو الأفضل؛ فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

تقوم قوانين الجدل الثلاثة على نفي النفي، وتداخل المتناقضات معاً، وانقلاب

الكمية الى نوعية من خلال التراكم، ويطرح القرآن الكريم فكرته عن الوجود بطريقة مختلفة يسميها (الزوجية): ومن (كل شيء) خلقنا زوجين لعلكم تذكرون؟!

الزوجية تسود الوجود فهي في الجزيئات دون الذرية بوجود الإلكترون السالب والبوزيترون الموجب، وهي في البناء الذري بوجود المادة ومضاد المادة ، وهي في الحيوان والنبات والانسان بوجود الزوج القرين، وسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون.

والسؤال لماذا كانت الزوجية قانوناً سائداً في كل الوجود خلا الله عز وجل فلم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة؟ والجواب: أن منبع التكاثر هو من الزوجية عندما تتفاعلان، فمن سلبية الإلكترون وإيجابية البروتون تتعادل الذرة كهربياً، ومن التقاء الشحنات السلبية والايجابية تندمج العناصر، ومن تزواج الكائنات تخرج ذرية جديدة تتباين عن آبائها بثلاث صفات: أنها نسخ جديدة منفصلة قائمة بذاتها، وهي أفضل من آبائها التي خرجت منها بما لايستطيع أن يقوم به أي جهاز تصوير في العالم، وهي ثالثاً تحمل إمكانية تكرار النوع بالمعادلة نفسها يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون.

وإذا كانت الكائنات تكاثر نفسها عن طريق التزاوج خوفاً من الانقراض؛ فإن الله لايحتاج أن يكاثر نفسه لإنه مُحرَّر من الفناء فهو الحي القيوم الذي لا يموت فتوكل عليه.

يتزاوج الأفراد بهدف المحافظة على النوع، ولكن تزاوج الأفكار هو من أجل ترقية النوع، فالأرانب تتكاثر منذ ملايين السنين بدون تغير يذكر في اجتماعها، والنحلة تتفاهم مع رفيقاتها بلغة الرقص، ولكنها لم تعلن عن نفسها أنها أصبحت نحلة مثقفة كما يقول الصادق النيهوم؟

في عالم الخلية تتمايز الخلايا وتستقل، وفي عالم الإنسان تتكون شخصيات في أناسي، وفي المجتمع تتكون البنى والمؤسسات وتعيد إنتاج نفسها.

لو عاش الفرد لوحده لمات جوعاً، ولكن الفرد باتصاله بالآخرين يكتسب قوة

خرافية فيطير بدون جناح ويتكلم بسرعة الضوء محطماً المسافات وهو يتلقى المعلومات فينتفخ دماغه متحولاً الى كائن أسطوري حجمه فرد وقوة عقله خمسة ملايين من السنين مضروبة بستة مليارات من البشر مضروبة بمليارات لا تنتهي من بشر مروا على الأرض في عقل جمعي أسطوري ولكن بدماغ لايزيد وزنه عن كيلوغرام ونصف فقط .

القانون الأربعون (٤٠)

إهداء الكتب وأجمل الهدايا

حفلات الأعراس باهظة التكاليف كاسرة الظهر، ويمكن استبدالها بكلفة أقل وفائدة أكبر إن لم نقل أعظم وأجمل الهدايا الكتاب؟ وتقولون وما قصة ذلك؟ والجواب هو من قصة زواجي الشخصية، فقد عكفت زوجتي وأخوها على كتاب بعنوان حين يكون الإنسان كلاً وحين يكون عدلاً، والعنوان مستقى من آية قرآنية عن ضرب الله المثل في رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهوكلّ على مولاه أينما يوجهه لايأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهكذا كان هدية العرس للمدعويين نسخة من هذا الكتاب فكأن أجمل هدية، أما الناس فقد اعتادوا على إرهاق أنفسهم بوافر الطعام حتى التخمة ثم ينصرف الناس وقد تأذت صحتهم، في حين ومع الكتاب يرجعون بوافر العلم وراحة المعدة، وهي دوماً أفضل فليس مثل المعدة بيتا للداء، وليس مثل راحة الجهاز الهضمي بابا للشفاء؟

وحتى لايفهمني القارئ خطأ فأكمل أنه لابأس من إتحاف الحضور بطعام خفيف عملي، وطيف من الحلويات والمشروبات بكلفة بسيطة. وهو ما فعلته أنا في عرسي فلم أتكلف ولم ينكسر ظهري وما زال كتاب "الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا" في خزانة الفكر ذخراً للفكر وتنشيطاً للذهن في مسائل كثيرة.

وأحيانا أقول ما هي أفضل الكتب المهداة فيأتي في ذهني عشرات الكتب، وأنا

شخصيا أفضل دوماً أن أحمل كثيراً من نسخ كتبي التي تجاوزت ثلاثين كتاباً في السوق الفكرية فإن ارتحت للشخص في أول مقابلة أهديته جميل الكتب، بل حتى اقتطاع أجزاء من مجلد وتصويره على نحو خاص كما حصل معي في القسم الوارد في موسوعة عالم الاجتماع العراقي الوردي حين تحدث عن نشأة المملكة في مطلع القرن العشرين وظروف قيامها كل في لغة سهلة وتوثيق جيد وتعليقات وتحليلات مفيدة وحيادية يحسد عليها ومعلومات غنية تقربنا لساحة الحدث، وهي مشكلة من يكتب في مواضيع حساسة فيقع بين لغتي الزلفى والمجاملة أو التحيز فيخسر الموضوع بعداً مهماً، والوردي أبدع في ذلك، بل إنني أنصح بطباعة هذا القسم على كتاب يضيء التاريخ عن الظروف الأولية لنشأة المملكة وشخصية قائدها؟

وفي هذا الصدد سمعت عن الأمير الوليد بن طلال أنه يهدي كتاب روبرت غرين المعنون بـ (كيف تمسك بزمام القوة) الذي طبعته العبيكان، وهو ليس دعاية لا للشخص ولا للمكتبة، بل تبيانا لمفهوم الكتب الجيدة التي تهدى.

وأذكر من صديقي الذي كان يعمل معي في قسم جراحة الأوعية أنه رجع يوما من إجازته من مصر وهو يعرف غرامي بالكتب ومطاردتها؛ فقدم لي كتابا على نية (رفع العتب) فعرفت أنه لم يهتم كثيراً بقدر المجاملة، فقلبت الكتب وقبلته؛ فلم أر أنه يستحق المطالعة أكثر من خمس دقائق؟

وقبل أيام جاءني كتاب مرسل بالبريد السريع بكلفة باهظة فتصفحته فما شدني كثيراً فأنا حائر كيف أرد على المؤلف. وبالمقابل فقد زارني الأخ والمفكر ماجد عرسان الكيلاني في جبال عسير فأحضر لي نسخة كاملة بسبع مجلدات عن تاريخ المغرب والأندلس الذي اشتغل عليه عبد الله عنان ٢٥ سنة من عمره مع عشر زيارات لإسبانيا والشمال الأفريقي؛ فقرأته باهتمام ومتعة في ستة أشهر حافلات بالمشاعر وهو من أجمل كتب مكتبتي العامرة؟

وهذا يقول لنا ثلاث قواعد عن إهداء الكتب: أن تكون مفيدة، فالكتاب يبقى

والعطر يتبخر، والطعام يؤكل، والورود تذبل، والعلم لايعرف الذبول؟ والثاني: أن تبقى أثراً من المهدي يتذكره من أهدي إليه إلى آخر الدهر؟ والثالث: أن يقتني من ينابيع المعرفة حسب الشخص واهتماماته الثقافية من سياسة وأدب وفلسفة وتاريخ وعلم فلك، وعلم تاريخ الإنسان وفلسفة العلوم والاقتصاد والعلوم الذرية والتسلح والاقتصاد والمرأة والروايات والسير الذاتية؟

وحالياً ذكرنا كتاب روبرت غرين والعنان وأضيف ثلاثاً مقدمة ابن خلدون، وتجديد التفكير الديني لمحمد إقبال، والمقال على المنهج لرينيه ديكارت. .

أداة القراءة العقل..![1]

نجيب بن عبدالرحمن الزامل

عضو مجلس الشورى السعودي

إذا فتشتم في سيرتي فقد سجنت مرتين بالرياض، الأولى وأنا أدرس بالجامعة هنا، لأنني دخلت مكتبة ولم أكن أملك مالاً كافيًا، فقد كان آباؤنا لا يعطوننا نقودًا، وخاصة للكتب، فقلت لنفس لعلي أستعير كتابًا، ولم تكن مكتبة عامة، بل مكتبة خاصة، وأخذت كتابًا ووضعته في جيبي، وكان أول كتاب كنت سأقرؤه، وكان باللغة الإنجليزية، لكن صاحب المكتبة رأى شيئًا آخر، فأخذت إلى الشرطة، وحرر لي محضرًا!

المرة الثانية، أنا من المنطقة الشرقية، وجئت للرياض في لباس مختلف، وكان شعر رأسي طويلاً؛ فأمسكت بي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاموا بقص شعري، وحرروا لي محضراً، فهل تودون المزيد من السيرة الذاتية؟!

القراءة رحلة جميلة، وماذا نستفيد من القراءة، فكرت في الكتب التي أثَّرت فيّ، بل الكتب التي قد يكون بعضكم سمع عنها، وقد يكون كثير لم يسمع عنها، والشيء الخفي وراء الكتاب، كل كتاب له قصة، وكل مؤلف وراءه قصة ومدارس، ومصادفات القراءة، جون ديوي[2]، كان واحداً من أعظم الفلاسفة في أوروبا، وكان أستاذه الكبير هو أستاذ الفلسفة الأول "أرسطو"[3] الذي يقول الفن هو محاكاة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة، مساء الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، الموافق ٢١ إبريل ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

(٢) جون ديوي (١٨٥٤-١٩٥٢م)، فيلسوف ورائد الفلسفة البراغماتية، ويقال: إنه هو من أطال عمر هذه الفلسفة واستطاع أن يستخدم بلباقة كلمتين قريبتين من الشعب الأمريكي، هما: (العلم والديمقراطية).

(٣) أرسطو أو أرسطوطاليس أو أرسطاطاليس (٣٢٢-٣٨٤ ق م) فيلسوف إغريقي، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في كثير من المواضيع، بما في ذلك علوم الفيزياء والميتافيزيقا، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة، والأخلاق، والبيولوجيا، وعلم الحيوان. واحد من أهم الشخصيات في تأسيس الفلسفة الغربية. كان أول من أنشأ نظاماً شاملاً للفلسفة الغربية، ويشمل الأخلاق وعلم الجمال والمنطق والعلم والسياسة والميتافيزيقا.

الحياة، فكثير من الفلاسفة بعد أرسطو أخذوا الفكرة على أنها شيء مقدس، فعبد أرسطو كالصنم.

جون ديوي كان أكثر واحد قربًا من أرسطو، وكان أيضًا تلميذًا لابن رشد[1]، العربي الأندلسي، ديوي قال: أرسطو أخذته في القراءة، وفي تتبع الناس الآخرين، وفي فن محاكاة الحياة، ولكنه ليس شجرة ونصورها كما تعمل بالطبية، ولكن هدفنا كيف تعمل الشجرة؟ كيف نسقي الشجرة؟ كيف تنمو الشجرة؟ كيف تنمو الحياة وتدور وتتغير وتتلون مع الفصول؟ والتغير في مسوغات الحياة والموت، ومن ثم العالم المتجدد والمتغير هذه هي محاكاة الحياة، فقرر جون ديوي أن يخرج من عباءة معلمه الكبير اقتداءً به، لأنه قال: الفن محاكاة الحياة، والحياة تتغير.

من هنا نفهم القراءة، فعندما نقرأ للكتاب الكبار، يجب ألا نحاكيهم، أو نقلدهم تمامًا، ولكنهم يعلموننا كيف نفهم مسوغات الحياة، نعرف كيف يأتي الماء إلى جذر الشجرة؟ وكيف تتكون الثمار؟ وكيف تتغير مع الفصول؟ فلم نكن نقتفي أثر معلمينا الكبار في السابق أو أئمتنا، فهم غيروا في الحياة، وكل مصلح جاء ليغير في الحياة؛ لأن الظروف تتغير، ومن ثم فنحن نقتدي بمعلمينا الكبار ولكن الظروف تتغير، ومن ثم يجب أن نتغير مع مقتضيات الحياة. كان ديوي من أكثر الناس الذين أثروا فيّ في منهج القراءة، وعلَّمني فعلاً أن محاكاة الكبار من المعلمين الحقيقيين هو الذي يعلمك أن تسير على قدميك، لا أن يدفعكم دائمًا من الخلف، وأنت تسير، وترفع يديك فقط، هو الذي يعلمك أن تركب على كتفيه لتكون عملاقًا، ولكن لا تعود قزمًا عندما تنزل عن كتفيه.

---

(١) ابن رشد: هو أبو الوليد "الحفيد"، محمد وليد أحمد بن رشد الأندلسي البربري (٥٢٠- ٥٩٥ هـ= ١١٢٦- ١١٩٨م)، عالم مسلم ولد في قرطبة بالأندلس، من أسرة عرفت بالعلم والجاه. وتوفي في مراكش. يعدّ ابن رشد في حقيقة الأمر ظاهرة علمية مسلمة متعددة التخصصات، فهو فقيه مالكي، وهو قاضي القضاة في زمانه، وهو ذاته طبيب نطاسي تفوق على أساتذته حتى أن أستاذه ابن زهر قال عنه: "ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس"، وهو عينه فيلسوف عقلاني، وهو أيضا مترجم لأعمال أرسطو المرجعية للمسلمين، وهو أيضاً فلكي ذو أعمال جليلة في المضمار، وهو نفسه المتكلّم الذي تصدى لنقد المتكلمين باسم توافق المعقول والمنقول وعلى رأسهم الإمام الغزالي.

أداة القراءة العقل، وتصنيفي الخاص للعقل هو: أن تعلم الحاضر، وتقرأ بعقلك المستقبل، بالاستدلال للظاهر للوصول إلى الخفي، معرفة الأسباب لتحري النتائج، والاطلاع على التجارب لتجنب العواقب، وهذا لا يتاح إلا بالقراءة، فلنبدأ!

فكما ذكرت، عشت في بيئة طغت فيها اللغة الإنجليزية، وقرأت في البداية ما يأتينا في مجتمع شركة أرامكو؛ لأن الوالد كان يعمل في شركة أرامكو، وكانت القصص التي تأتي للأطفال في ذلك الوقت، قصص مصورة comics وكنت أقرأ البات مان batman، والسوبر مان superman، والرجل البرقي، وأقرأ كتباً صغيرة كان يخرجها - مخرج الرعب كما يسمونه - ألفرد هتشكوك[1]، وأقرأ كتيبات كانت تصدرها النيويورك تايمز New York times وقد كانت تأتينا متأخرة في رأس تنورة في المنطقة الشرقية، وتصورت من كثرة ما قرأت وأنا صغير، أنني أعيش فعلاً في نيويورك! إلى أن عرفت الحقيقة وسعدت بها!

أول كتاب قرأته في حياتي كان له قصة، وكنت أود أن أحضره لكم، ولكن لأنني تأخرت، لم أتمكن من إحضاره، والكتاب غير مشجع، ولكن في الطرف الآخر هناك أشياء معينة قد تغير نظرتك للحياة، أو قد تبني طريقتك في الفكر، ماذا تقرأ؟ ولماذا تقرأ؟ لما انتقلت من الـ comics والأشياء المصورة إلى أن بدأت أقرأ في الفلسفة الحديثة، ونقلت إلى فلسفة الشبان الأمريكان، وكان يسمون أنفسهم الشبان الغاضبون، من أشهرهم: آرثر ملر[2]، ولم أمر على الأدب العربي، والفلسفة العربية، لم أمر على الأدب الإغريقي، إلا فيما بعد؛ لكن كانوا هم البوابة، أدخلونا على أوهارا، وغيرهم في أمريكا. أما الكتاب، فكنت يومًا مع أخي الأصغر، وهو

(١) السير ألفريد جوزيف هيتشكوك، KBE، (١٨٩٩ - ٢٩ ١٩٨٠م)، مخرج ومنتج بريطاني. يعد رائدًا في العديد من تقنيات أفلام الإثارة النفسية والتشويق. انتقل هيتشكوك إلى هوليوود بعد النجاح المهني الذي حققه في بلده المملكة المتحدة في كل من السينما الصامتة وبداية السينما الناطقة. في عام ١٩٥٦ أصبح مواطناً أمريكياً مع الحفاظ على جنسيته البريطانية.

(٢) أرثر ميلر (١٩١٥ - ٢٠٠٥م) كاتب وروائي ومسرحي أمريكي. كان أحد رموز الأدب والسينما الأمريكية لمدة ٦١ عاماً. يعد من عمالقة المسرح الأمريكي المعاصر، نادى بفكرة مسرح في متناول الجمهور.

موجود الآن، وكان شقيًا، وكثير الخروج والعبث، فأخذني معه في يوم من الأيام، وكنا نذهب لنرى الأشياء التي يخرجونها الأمريكان من الـ compound الذي كنا نعيش فيه، فكانوا كل يوم أحد يخرجون أشياءهم المستعملة ليتخلصوا منها، أو يبيعونها، هذا الكتاب لم يشترهِ أحد، فأخذته، وكان فيه والعياذ بالله صورة مارلين مونرو وهي نجمة معروفة، وكان لون الكتاب وردياً، وبه صور نساء ومعظمهن غير متسترات، هداهن الله!

وقد سألت نفسي: لماذا الأجانب يقرؤون أكثر منّا؟ لديهم طريقة عجيبة لجذب الانتباه بالعناوين، فلديهم دائمًا عناوين: عنوان خلاب، وعنوان شارح، يسمونهم: العنوان الرئيس، والعنوان الـ subtitle عنوان فرعي، وهذا الذي جذب انتباهنا ونحن صغار، وقد كتبت مقالاً أحدث ضجة في الإنترنت، وهو بعنوان: يوم تركت الصلاة! عندما تكون مراهقًا وصغيرًا، تبهرك الأفكار الكبيرة، وقد نرجع إلى هذه الفكرة فيما بعد، أخذت هذا الكتاب وتصورت أن به صوراً فقط، ومن حسن حظي أنه كان كتابًا مصمتًا، ليس به سوى الصورة التي على الغلاف، وكان يتحدث عن الفضائح في هوليود! وهي مدينة صناعة السينما في أمريكا، وتحدث عن نجمات هوليود في ذلك الوقت وعن فضائحهن، حتى غرقت في هذا الكتاب، ولأول مرة أقرأ كتابًا من الغلاف إلى الغلاف؛ وذلك لأنه فضائحي، وهوليود مجتمع بسيط وساذج، لكن واحداً من أعظم فلاسفة أمريكا عشق الفنانة الممثلة الأمريكية مارلين مونرو، وأثناء الزواج في الحديث والتعارف، فعن طريق هذا الكتاب عرفت الكتاب الكبار، مثل: آرثر ملر، جيمس ويليمز، إسحاق عظيموف[1] واحد من أعظم العقول التي عرفتها، فلو رأى أبي أو أمي هذا الكتاب لعنفوني عليه، ولكنه كان فاتحة

(١) إسحاق عظيموف (١٩٢٠م- ١٩٩٢) مؤلف أمريكي روسي المولد وكيميائي حيوي في تخصصه الفعلي. اشتهر بكتاباته في روايات الخيال العلمي حيث لاقت رواياته نجاحًا وانتشارًا كبيرين. وقد تركت مؤلفاته أثرًا كبيرًا في سينما الخيال العلمي وحتى في علوم الرجل الآلي أو ما يسمى بالروبوتيك والذكاء الاصطناعي عن طريق ما يعرف بقوانين عظيموف.

على الفلسفة والأدب الأمريكي، إلى أن تغيرت حياتي، لي عم وهو أحمد الزامل، يعد موسوعة تمشي على قدمين، يتحدث لغات مختلفة، وفروع اللغات، ويعرف شعوب الأرض، وصاحب علم عجيب، وإن كان خبيرًا، ويهتم بالناحية العملية، العم أحمد هاجر فعلاً إلى الكويت، وأسس شركة كبيرة. أتجول في بيتنا وإذا بي أجد جدتي تقفل في مكان معين، فاقتحمت المكان، فعلاً مثلما يقولون في قصص الأساطير، الجزر المهجورة والقرصان..!

وجدت كتب دارون، أول كتاب لدارون[1] وهو: النشوء والترقي، وهذا الكتاب فتح لي مدارك كثيرة، وأدخلني إلى الفلسفة العلمية من أوسع أبوابها، وأيقظني وأنا في عمر صغير، لأن دارون استخدم باللغة الإنجليزية كلمة لم تكن مستخدمة، وترجمتها باللغة العربية تختلف هي كلمة evolution وهي تعني التطور من شيء إلى شيء آخر، تختلف عن progress مثلاً، وشاعت نظرية دارون، The original species أصل الأنواع، كيف أصل الأنواع؟ و species وتعني الأجناس، الإنسان كان شيئًا آخر قبل أن يكون إنسانًا، هذا مدهش، لذلك الذي يجعلنا نميل إلى قراءة الكتب الأجنبية، ولا نقرأ الكتب العربية، وبالذات التأصيلية؛ لأنها تمنعك من البداية، حكم تحريم كذا، حكم تحريم كذا، لذا ليس هناك داع للقراءة، فالنتيجة معروفة، بينما دارون في القرن التاسع عشر، يقول لك: إن هناك أصلاً للأنواع، original species ولم يكتف، يأتي لك بعد ذلك بشيء اسمه الانتخاب الطبيعي Natural selection، كيف يكون هناك انتخاب طبيعي، الكتاب نقلني إلى سنوات، وقرأت الانتخاب الطبيعي، طبعًا كلكم يعرف دارون، وتعرفون نظرية النشوء والترقي، وتعرفون طبعًا أن نظريته دحضت، وها نحن نقول لشبابنا الصغار الذين لديهم أسئلة كثيرة، قد تكون كونية،

---

(١) هو تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) هو عالم طبيعة إنجليزي مشهور، صاحب نظرية النشوء والترقي، ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان. ألف كتبًا عدة في هذا الخصوص، لكن نظريته الشهيرة ووجهت بانتقاد كبير وخصوصًا من رجال الدين في جميع أنحاء العالم. دارون نفسه ظل حائرًا فيما سماه الحلقة المفقودة، التي تتوسط الانتقال من طبيعة القردة إلى الإنسان الحديث!

من؟ ولماذا؟ ونتصارع معهم، بل وننهرهم، أنا أعتقد أن الدين الإسلامي لا يستحيي من الأسئلة؛ لأن لديه كل الأجوبة، النهر والزجر هو الذي يعمق المشكلة، ثم كيف تتحكم في عقول شباب صغار السن، والأسئلة تنبع من العقل، وهذه وظيفة العقل أن يسأل.

والآن ظهرت أشياء تسمى Modern Darwin وعدلوها عندما وجدوا أن هناك أشياء كثيرة خاطئة، وأن نظرية التطور ليست صحيحة في مجملها؛ لأنه ثبت أن الديناصورات خرجت كما هي، هذه من الأشياء التي دحضت دارون، وهناك أشياء كثيرة، كما أنه قد حدثت على تلك النظرية ثورة علمية وأخرى دينية في أمريكا، لأنها كانت تدرس في أمريكا، وقد ظهرت الآن ما يسمى بالدارونية الحديثة، لكن أيضًا لدارون قصة أخرى جميلة، وهذا أيضًا يجب أن يتعلمها الناس، وهو الجد والعلم؛ فدارون قد يكون خرج بنتيجة سيئة أو غير ذلك، ولكنه عمل وبذل الجهد، دارون قد يكون من أكثر الناس المستفيدين على وجه الأرض، الآن هناك كثير من الناس يحتفلون بدارون، إلى فبراير الماضي. احتفلوا بعيد ميلاده الـ (٢٠٠)، وصنعوا كيك، وغنوا happy birthday to you، ورسموا بيته من جديد في إسكس في كامبردج.

كان لديهم سفينة اسمها بيجل، من أشهر السفن في تاريخ الفكر العلمي في العالم الغربي هي سفينة بيجل، وهي سفينة تركها الملك هنري السادس بعد الفتوحات، لعدم صلاحيتها، جاء الشاب الذي عمره ٢٤ عامًا دارون، ورأى كابتن السفينة، وارتحل بها - والقصة طويلة - وكان والده ضده، وضد فكرة سفره وترك بريطانيا، وذهابه إلى المجهول، ولكنه أصر على السفر، ووعدهم أنه سيرجع خلال عام، وذهب إلى أمريكا الجنوبية وبعض جزر الكاريبي، وطبعًا كان مرفهًا نوعًا ما، فوضعوه في قمرة صغيرة في سفينة وكانت لا تتسع حتى لأن يتحرك فيها، وضع فيها الخرائط والأشياء الأخرى، وقال: كيف سأعيش في هذه القمرة خمس دقائق؟ ولكنه عاش بها خمس سنوات، قضاها دارون في هذه السفينة بيجل، ودار بها على كل

جزر الكاريبي، وكل سواحل أمريكا الجنوبية من جهة المحيط الهادي، ثم انتقل إلى جهة المحيط الأطلنطي، وعبر عن طريق جزيرة فيجي، وله قصص كثيرة، حتى في الفكر، دارون لم يبحث فقط في تطور الأنواع، بل بحث حتى في التطور الفكري.

دارون شخصية معقدة جداً، ويقال أحياناً ساذج naive، لكن وراءها بحث، وجد مثلاً بعض الحيوانات تختلف في البرازيل عن بعض جهات بيرو، فإذا اختلفت معنى ذلك أن هؤلاء الناس تأخروا عند هذا التاريخ، وقد سماها ثلاجة التاريخ، بعض المخلوقات لم تتطور، وقد دحضت النظرية!

ذهب إلى فيجي، ووجد هناك شيئًا غريبًا، وما زال الفيجيون يثيرونها في علم الإنسان، وتركيبة النسيج البشري والذاكرة، عندما ذهب إلى هناك وجدهم يتبادلون التحايا بالمقابلة الصدرية، كما وجدهم يعيدون كلام الإنجليز كما يسمعونه، فاتجه أيضًا إلى دراسة تطور الدماغ البشري خمس سنوات! وعندما رجع دارون نشر نظرية النشوء والترقي، والتطور والانتخاب الطبيعي، نظرية غريبة، وكان دائمًا العالم لا يستقبل النظريات بالترحاب، وخاصة الثورية الجديدة، ولأمر ما المحفل العلمي في بريطانيا استقبل دارون، وكان يعطونه درجة يسمونها في بريطانيا بـ: night foot وهي درجة فارس، وقد وقف كبير الأساقفة في لندن، وقال: حرام لا يجوز، الأغرب أن عامة الناس استقبلوه بترحاب كبير، وأعتقد أنها أكثر نظرية عمت في العالم إلى يومنا هذا، اليوم نقول الحلقة المفقودة، نقول الإنسان الأول، وحتى نأتي بها في النكات، وفي أحاديثنا المختلفة، أي قد وصلت إلى كل مكان في العالم، مع أنها قد تكون عليها ملحوظات، ولكنها أثارت طريقة في الفكر الإنساني غير مسبوقة.

هناك واحدة من أعظم أديبات العالم وأغربهن، هي فرجينا وولف[1]، وهي

---

(١) إديلين فرجينيا وولف (١٨٨٢-١٩٤١م)، روائية إنجليزية، وكاتبة قصص قصيرة. تعد واحدة من أهم الرموز الأدبية المحدثة في القرن العشرين. خلال فترة ما بين الحربين، كانت وولف كاتبة ذات مكانة مرموقة في مجتمع لندن الأدبي. من أشهر أعمالها رواية "السيدة دالواي؛ وإلى الفنار (١٩٢٧) وأورلاندو (١٩٢٨)، ومقالتها الطويلة "غرفة تخص صاحبها" (١٩٢٩) والتي جاءت فيها جملتها الشهيرة: "يجب أن يكون للمرأة مالها الخاص وغرفة خاصة بها إذا أرادت ان تكتب الروايات"!

بريطانية وعندما أتحدث عن الكتب، يشترون كتب فرجينيا وولف التي تقول: إن الكتب التي تروي قصص حياتنا على الأرض، وفوق الأرض، وبعد الأرض، وتجعلنا نستكشف معنا وجودنا على الأرض. وفرجينا وولف لديها كتاب عظيم اسمه: السيدة دالاوي Mrs Dalawi، وكتاب آخر اسمه لايت هاوس light house (المنارة)، ولدت عام ١٨٨٨ وماتت عام ١٩٤٠م، لها كتاب عجيب جداً، وفعلاً بعد موتها صنفت كأهم مفكرة، ولديها كلمة مشهورة جداً، تقول: حتى تكتب المرأة في الخيال العاطفي، يجب أن يكون لها غرفة، ويكون عندها أموال. ولديها كتاب "غرفتي الخاصة"، هذه الفتاة فرجينيا وولف، اخترعت إنجليزية جديدة، حتى يسمونها الإنجليزية النسائية، ومليئة بالفلسفة، ومليئة بالخيال غير المسبوق، ولكنها كانت مريضة، ومصابة بصدمة عاطفية، عندما ماتت أمها، وصدمة أخرى عندما ماتت أختها، ولكن الصدمة التي نقلتها إلى المستشفيات هو موت أبيها. ونحن اليوم نتكلم عن العنف الأسري، وأشياء من هذا القبيل..

الأشياء التي لا يعرفها كثير من الناس عن فرجينيا وولف، أن الذي أدى إلى صدمتها فعلاً هو أن أباها كان أرمل سابقاً، وأمها كانت أرملة سابقة، ولديهما أولاد، وعاشت في شقتها مع أخت اسمها فينيسيا مع إخوانهم الأكبر منهم سناً، وعندما كتب أحد الأدباء الإنجليز كتب أن سبب الصدمة العصبية وانهيار فرجينيا وولف، أنها كانت تتعرض لاعتداء جنسي متكرر من جانب إخوانها: أحدهم يدعى جورج، والآخر يدعى جيلد، وهذا ما أدى بها إلى الصدمة العصبية والنفسية، وتصاب أيضاً بالقلق والاكتئاب، حتى أنها تزوجت شخصاً كانت تحبه فعلاً، وقد أخلص لها وعانى معها كثيراً، فوجدت نفسها أنها لا تستطيع أن تتخلص من هذا الاكتئاب، ولا تستطيع أن تقرأ أو تكتب. وكان لديها بيت على النهر في بريطانيا، وقررت في يوم من الأيام أن تنتحر، فلبست أحسن معطف لديها، وكان هناك معطف معروف في بريطانيا بالمعطف ذي المخابئ، وكان ذا جيوب كثيرة، أخذت الأحجار وملأت

الجيوب، ثم حشت المعطف بالأحجار، ومشت بهدوء إلى النهر، وألقت بنفسها حتى وصلت إلى أعماق النهر وماتت، وكتبت رسالة لزوجها، قيل إن ما كتبته لزوجها يعد من أفضل مقطوعات الحزن والتوديع في اللغة الإنجليزية إلى يومنا هذا، وهي موجودة لدي ولكن باللغة الإنجليزية، هل تريدون أن أقرأها عليكم باللغة الإنجليزية، أم أترجمها إلى اللغة العربية، إذن أقرأها بالإنجليزية ثم أترجمها إلى العربية.

Dearest, I feel certain I am going mad again. I feel we can't go through another of those terrible times. And I shan't recover this time. I begin to hear voices, and I can't concentrate. So I am doing what seems the best thing to do. You have given me the greatest possible happiness. You have been in every way all that anyone could be. I don't think two people could have been happier till this terrible disease came. I can't fight any longer. I know that I am spoiling your life, that without me you could work. And you will I know. You see I can't even write this properly. I can't read. What I want to say is I owe all the happiness of my life to you. You have been entirely patient with me and incredibly good. I want to say that - everybody knows it. If anybody could have saved me it would have been you. Everything has gone from me but the certainty of your goodness. I can't go on spoiling your life any longer.

I don't think two people could have been happier than we have been

تقول له: أنا متأكدة أنني أتجه إلى الجنون مرة أخرى، وأعتقد أننا لا نستطيع أن ننجح هذه المرة في التخلص من هذه الأوقات الرهيبة التي نعاني منها، وأن هذه المرة لن أشفى مطلقًا، فلقد بدأت أسمع أصواتًا، ولم أعد أستطيع التركيز كما كنت؛ لذا أنا سأعمل ما هو صالح لكلينا، لقد أعطيتني أعظم سعادة تقدم من شخص إلى شخص، لقد عشنا كأعظم اثنين ذاقا طعم السعادة في هذه الدنيا، حتى جاءني هذا الماضي الرهيب. وأنا أعلم أنني أفسد عليك حياتك، وحين أموت فتستطيع أن تعمل وتستمر في الحياة، أشكرك على كونك صبوراً كل هذه المدة، وتحملت مني ما لم

يتحمله أحد، ولن يتحمله أحد، وأعتقد لو كان في إمكان أي شخص في العالم أن ينقذ حياتي ويعيدني من جديد كما كنت لكان أنت، لم أستطع الاستمرار في الحياة، لا أستطيع، ولا أستطيع أن أفسد حياتك أكثر، ولا أعتقد أن هناك اثنين عاشا سعيدين كما كنا أنت وأنا، محبتك فيكتوريا. يقال إن هذه من أعظم رسائل التوديع التي عرفها الإنسان.

لما كنا نتكلم عن دارون وجدت كتابًا للذي يقرأ الجزء الآخر من دارون، فقد قال إن الحياة تتطور وتتغير، ولكنه كتب كتابًا آخرًا ظهر، وقد أزعج كل الدارونيين في الأرض، وهو الذي فعلاً كان رصاصة الرحمة على نظرية دارون، والكتاب اسمه: Darwin's black box صندوق دارون الأسود، في علم الكيمياء الحيوية bio-chemistry عرفت في الخمسينات، وأثبتت شيئًا جديدًا اسمه molecules الجزئيات التي تكوّن الخلية، هذه الـ molecules هندسة عظيمة لا يمكن أن تنشأ من ذاتها، وأثبت العلم أنها لا يمكن أن تنشأ من ذاتها، بل إن توافقها الهندسي والتكويني والتراكمي يجب أن يكون ذا صيغة واحدة مستمرة متباينة من الأبدي إلى الأبدي، فعلم الكيمياء الحيوية biochemistry أن الأشياء لا تبدأ حتى بالخلية، ولا تبدأ بالأنسجة، وهنا الدقة، فكما قالوا إن دارون كان naive ساذج لأنه كان يأخذ قدم حصان أو قدم بغل مثلاً وكان يصفهم، وكانت هذه طريقة غير صحيحة، مع ذلك تبدأ الأشياء بالجزيئات وليست بالخلية، فالجزيئات هي التي تكون كل الأشياء الحية الموجودة، وكانت هذه فعلاً هي رصاصة الرحمة لنظرية دارون، ولم يتوافر في وقت دارون نظريات مثل الكيمياء الحيوية، ولو قدر أن وجدت أشياء مثل هذه في عصر دارون، أو قدر لدارون أن يتواجد في العصر الحالي، لتغير رأيه.

أيصح أن أتكلم عن كتاب نسيت واضعه، وهو يتكلم عن حركة الفلك، وسير العلماء الذين أثروا في التاريخ، إنه كتاب قرأته عن جاليليو، بحثت في كل مكان عنه ولم أجده، واحترت أذكر ذلك في هذه المحاضرة أم لا أذكره، فقد أكون كاذبًا، وقد

أكون صادقًا، لكن الكتاب قرأته، وكان يوضح حياة لم أكن أعرفها عن جاليليو[١]، ويسمونه في إيطاليا جليلي، وجاليليو هو الشخص الذي كشف أن نظرية أرسطو في سقوط الأجسام غير صحيحة، ونرجع إلى جون ديوي، فأرسطو يقول: إن الأشياء تسقط على الأرض بحسب ثقلها، فإذا رمينا بفيل ونملة إلى الأرض من مكان مرتفع، أيهما يصل إلى الأرض أولاً، فحسب نظرية أرسطو، الفيل يصل أولاً، جاء جاليليو وأثبت أن الأشياء تقع أي تصل إلى الأرض في زمن واحد وبسرعة واحدة، فتتعجب أن ٢٠٠٠ سنة عاشها الناس على نظرية خاطئة، ولم يجرؤ أحد أن يناقشها، وبكل بساطة، صعد فوق برج بيزا المائل، وفي يوم هادئ من الرياح، ألقى كتلتين مختلفي الوزن وأثبت أنهما يهبطان بسرعة واحدة!

عارضت الكنيسة نظرية جاليليو، وكان في إيطاليا في ذلك الوقت مكاتب التفتيش، وهي عنيفة جداً، وقامت بمحاكمة جاليليو، وهوجم جاليليو من كافة الجهات حتى أن هناك جماعات حديثة في المسيحية تسمى اللوترينز، وهم آباء البروتستانت فيما بعد، هاجموا الكنيسة الكاثوليكية، ولم يكن رائدهم مارتن لوثر كينج، ذلك الهولندي الذي يعرفه الجميع، لكن هناك شخص آخر اسمه كارفن، وهو رجل يميل إلى العلم، وبدأت نظرية الكارفنزم، وتقريبًا يشابه سبينوزا، كارفن هاجم جاليليو، وكانت هذه الضربة الموجعة لجاليليو، وقبل جاليليو، قتل وأحرق سبيتورو العالم المعروف قبل ١٤ يومًا من محاكمة جاليليو، فخاف جاليليو، وأيد نظرية كوبرنيكس، والإنسان يتعجب: كيف العلماء يغازلون السلطة الدينية، كوبرنيكس، وهو بولندي معروف، وجاء قبل جاليليو، والصراع لم يكن حول الحجر الذي يسقط كما قال أرسطو، لكن كان الشيء الذي توصلوا له بعد ذلك أن جاليليو قال: إن الأرض ليست مركز الكون، الأرض تدور حول الشمس، واخترع منظاراً وأثبت عن

(١)جاليليو جاليلي ،(١٥٦٤-١٦٤٢م)، عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فَيزيائية، فأثبت أولاً خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، عن طريق الملاحظة والتجربة.

طريق قياسات رياضية والأفلاك، أن الأرض تدور حول الشمس، كوبرنيكس، هذا البولندي، وكان أيضًا راهبًا، رجل دين، اكتشف هذا الموضوع، ولكنه ألف كتابًا حول هذه النظرية وقدمه بشكل جميل إلى البابا في الفاتيكان، وقال له: إن هذه فرضيات أقدمها لك قد تكون غير صحيحة، فقبلها البابا، وأمر بتدريسها.

كوبرنيكس مشى في طريقه حتى تغير الكهنوت الموجود في الفاتيكان. جاليليو ليس لديه الحماس، وبقتلهم وحرقهم العالم الذي سبق جاليليو، فخاف جاليليو على نفسه وذكر لهم أن جميع ما قاله خطأ، وأنه تراجع عن كوبرنيكس، والشمس هي التي تدور حول الأرض، وأن الأرض هي مركز الكون، والأرض ثابتة لا تتحرك، واكتأب جاليليو بعد هذه الأحداث وذهب إلى ابنته ماريا.

القصة الجميلة هي العلاقة بينه وبين ماريا، كانت ماريا بارة بأبيها، وهي من أبر البنات بأبيها، والأب من شدة تعلقه بالعلم ونتيجة الاكتئاب الذي حل به، صار حزينًا، ويبكي في حضرة ابنته ماريا، وكانت ماريا تحكي له قصة كيف العالم الكبير الذي اكتشف أن الأرض كذا وكذا، وتعطي له قصص أن الناس سيعترفون أنك أنت الذي على صواب، وهم الخاطئون، فكان هنيئًا على حضن ابنته، وفي أحد الأيام قال لها أنا سعيد وبكى، فحضنته وبكت أيضًا حتى ماتت. هذا اليوم الذي أرسل جاليليو إلى أحد أصدقائه وقال: كان هذا اليوم انتهى فيه جاليليو، فقام جاليليو وكتب ما توصل إليه من العلم وواجه به العالم، وأوضح أن نظرية كوبرنيكس صحيحة بفضل ابنته، ثم مرض بعد ذلك إلى أن مات.

السلطة الدينية في زمن جاليليو، كانت هي الحاكمة، بوساطة الكنيسة التي حاربت العلماء في العصر الوسيط في أوروبا، طبعًا الإسلام ليس به سلطة دينية، والإسلام ليس به ما يسمَّى برجال الدين، وليس بالإسلام ما يعرف بالكهنوت، مثل ما قال برنارد لويس اليهودي: قال الإسلام هو اجتماع، ومن ثم عندما جاء الإسلام الناس قرؤوا وعلموا. ففي أحد الكتب الإسبانية يتحدث أحد المثقفين الأسبان،

يقول: "نحن لدينا العلم، وأخذنا دين الإسلام، لأن فيه اجتماعًا" وما الذي ساعد في نقل أوروبا من معراج إلى معراج، أنهم اطلعوا على كتب ابن رشد، عرفوا التجربة والمنطق والاستقراء، وكان الناس يحجون إلى قرطبة، وكان أهل قرطبة يتكلمون اللغة العربية في إيطاليا، فأنا أتكلم عن فترة معينة بالذات، ومعروف أن محاكم التفتيش حرقوا العلماء، ونعتوهم بالسحر!

الكتاب الآتي لأبي حامد الطبري، لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل عليه، وهذا الكتاب هو التفسير العظيم: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"[1] هذا الكتاب نقلني نقلة عظيمة جدًا، وإن كان صعبًا ومتقعرًا وشديد الصعوبة، وأعترف أنني لم أفهم سوى ٣٠٪ منه، ولكنه نقلني نقلة إلى الجانب الآخر من الثقافة، الجانب الآخر من التأصيل، وبدأت أرجع إلى الكتب التأصيلية، والكتب التراثية، ولكون اسمه يتردد كثيرًا كأشهر تفسير للقرآن الكريم، ونعرفه باسم تفسير الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، عاش من ١٢٢٤ إلى ١٢٨٣م، الغريب أن هذا الكتاب لم يأت بالطرق التقليدية، والكتاب يعرفه الكل الآن، لكن حتى عام ١٩٠٠م، لم يكن يعرف هذا الكتاب، واختفى من وجه الأرض.

وهنا أود أن تحدث عن المستشرقين، هل هم ضرر بالكامل، أم نفع بالكامل، أم بين بين، فهذا المستشرق الهولندي الألماني، هو الذي قال: إن لديكم مفسرًا عظيمًا لديه كتاب عظيم، اسمه الطبري، وهذا الكتاب إن وجد لأغنانا عن جميع تفاسير القرآن، بحثوا عن الكتاب، وكان يوجد من الكتاب أجزاء هنا وهناك، ولكن الكتاب كله اختفى، الذي يعرفه الآن الجميع، ويعتقدون بالبداهة أنه موجود من البداية، المستشرقون هم الذين دلونا عليه، عندما بحثوا، أين وجدوا هذا الكتاب؟ في المراجع الإنجليزية، الكتاب حسب البلجيكي المستشرق الشهير، وجد الكتاب كاملاً في مكتبة أمير حائل، كيف وصل إلى حائل؟ أخذه المستشرقون وطبع في مكتبة بولاق في مصر.

---

(١) هو تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، رحمه الله، أجمع العلماء على عظيم قيمته، وأنه لا غنى عنه لطالب العلم عمومًا. .

شانترام، هذا كتاب قرأته خمس مرات، يتكون من ١٠٠٠ صفحة، حتى أحد أصدقائي ملوا من كثرة وجود هذا الكتاب معي، وكان هو الذي اشترى لي هذا الكتاب، وقلت سوف أترك هذا الكتاب، ولم يدر أنني اشتريت منه نسخة أخرى! وهذه النسخة هي نسخة صديقي، لم أستطع أن أتخلص منه، هذا الكتاب صاحبه قصة، ووراءه قصة، والذي كتب هذا الكتاب "شانترام" واحد من أكبر المجرمين على وجه الأرض، وقاتل، ومبيض أموال، وسفاح، ورجل عصابات وهو أسترالي اسمه: فردريك، وهو واحد من أعظم من كتب بالإنجليزية إلى يومنا هذا، أفضل من كتب بالإنجليزية رواية، وأسلوبًا، وتشويقًا، وواقعًا، وواقعية، حتى أن صحيفة الديلي تايمز قالت: إنه أعظم رواية تحدث لإنسان!

قال لي أحد الأصدقاء البريطانيين، أنه قرأ هذا الكتاب وقال: سيصبح هذا الكتاب هو الإنجيل my bible وكما قلنا عن كاتب هذا الكتاب من أوصاف سيئة: إنه مروج مخدرات، وقاتل، وعربيد، ومرتزق، وممثل سينما في الهند، عاشق، ومطارد من الإنتربول، حارب مع طالبان في أفغانستان، وعاش مع المشبوهين الهنود، وعرفني كيف يعيش الناس في بومباي، وأشياء مذهلة كثيرة، كما قيل: لو كتبت بالإبر على مآقي البصر لكانت عبرة لمن اعتبر، من كتاب ألف ليلة وليلة، تعرف على شخص اسمه عبدالقادر خان، وليس عبدالقادر خان الباكستاني، ولكنه مثله، شرير، وعلمني كيف يحارب جماعة الطالبان الأفغانية؟! وكيف كانت تمول جماعة طالبان؟! وقصص كثيرة، لهذا عندما كنت أقول: إنه يجب أن يكون لدينا إدارة لوجستية اليوم، لأن هناك أشياء يجب أن تعرف، تدير الدولة التي تعيش فيها، فالسفير ليس سفيراً فقط، فهناك قنوات لا ندري عنها، هي التي تحرك المجتمعات، هذا الرجل أخرج الهند من جديد، عبدالقادر خان، واحد من أكبر تجار المخدرات في الهند، لا يترك صلاة، ويقول: إن المخدرات ليست حرامًا، وهو الذي موّل طالبان، هذا ملحد. يقول هذا العربيد المجرم أصبحت تلميذاً صغيراً أمام عبدالقادر خان، هذا

الرجل لم يعتنق الإسلام، ولكنه في كتاباته كان مع الإسلام والمسلمين. وعبدالقادر باي خان، وباي تعني سيد باللغة الهندية، يقول: أرسلني عبدالقادر خان إلى خالد الأنصاري، وهو شخص فلسطيني في بومباي، لأتعلم دخول سوق المال السوداء الذي أعطاني الفرصة السانحة والوسيلة لكي أكون ما لم أرد أن أكنه أبدًا، فلم يكن يريد أن يكون مجرمًا محترفًا، يريد أن يسرق يومًا، ويقتل يومًا، ويصادق يومًا، ويرقص يومًا، لا أن أكون رجلاً محترفًا!!

ولكنني سأترك السعادة الغامرة، وسأترك السعادة لأنني محمي من هؤلاء الإخوة، يسمي عبدالقادر خان وخالد الأنصاري الفلسطيني إخوة، لقد كان خالد أول أستاذ لي، وكان من نوع الرجال الذي يحمل ثقل ماضيه معه أينما حل - شاهد التحليل النفسي عند هذا الرجل المجرم الهارب القاتل - يحمل بعينيه المتقدتين كمشاعل المعابد، لقد قابلت رجالاً مثل خالد في السجن، وفي ساحات المعارك، وفي أوكار الجريمة، ومختليات المرتزقة، ولقاءات المنفيين، كلهم يحملون صفة مشتركة بينهم، هم قساة، لأن هناك مواقد للقسوة في أعماق أسوأ الأحزان، وهم موثوقون لا يكذبون، وهم موثوقون لأن حقائق الحياة الفظيعة التي شرخت وجودهم تجعلهم لا يستطيعون أن يكذبوا، إنهم غاضبون لأنهم لا يستطيعون نسيان الماضي، ولا يستطيعون القدرة على الغفران، وهم موحدون، كلٌ يعتقد ويتظاهر عندما يعيش معنا، فإنه يمكننا المشاركة، ولكن هذا لن يكون، لأن كل واحد منا في جزيرة مهجورة، وهؤلاء الذين مثل خالد كمن ألقوا في تلك الجزيرة، واستخدم كلمة إنجليزية لم يستخدمها عتاة اللغة، وذوقه العالي، على الرغم من أنه أول مرة يكتب، استخدم كلمة ماروند marooned، وهي كلمة للذين يقرؤون باللغة الإنجليزية جميلة جدًا، تنقلك إلى عصر القراصنة، وعصر سرقة العبيد من أفريقيا وترحيلهم منها عبر السنغال إلى المستعمرات الجديدة، فالذي لا يريدونه يرمى في الجزر، فخرجت كلمة ماروند؛ أي يرمى في الجزر الجديدة، لهذا كان الكتاب يقول: هم دائمًا معزولون وموحدون!

من آخر الأشياء التي قرأتها لشخص خفيف الظل اسمه ستيفن برايز، وهو من المثقفين والشعراء، ومن الأناس الذين يسمونهم Standing comedian أي الذين يلقون النكات واقفين، وله مؤلفات في أكثر من علم، ألف كتابًا عن أكثر الأشياء إضحاكًا، فأورد بعض الحكم للمشهورين في أمريكا، أول حكمة قال عن أحد المشهورين: إن السياسية تعطي للشخص قوة استثنائية، تجعلهم يتصرفون ببذاءة مع النساء!

أنا متأكد عمن يتحدث ستيفن برايز، ماذا تتوقعون أن يتحدث عنه؟ إنه كلينتون، الذي صار فيما بعد رئيس أمريكا، أما دونالد رامسفيلد، والذي كان وزير الدفاع الأمريكي السابق، قال للصحفيين: لن أعطيكم أرقامًا فالأعمال الذكية ليست من اختصاصي، هنا يوجد مواراة في اللغة الإنجليزية، فماذا قال: قال: Intelligent worksوكلمة Intelligent يمكن أن تحمل معنى الأشياء الذكية، ويمكن أن تأتي بمعنى الأعمال المخابراتية، وطبعًا هو كان غبيًا بالفعل!

بوب توب، هذا الأمريكي الذي كان مرشحًا في الانتخابات، يقول أنا مثل أزرائيلي، وهو كان أحد وزراء بريطانيا في الثلاثينيات وكان ذا شهرة واسعة، وهذا الرجل كان سيصبح أشهر من تشرشل لولا الظروف، قال شيئًا: قامت لعنة فسجلها عليه، هناك ممثلة مشهورة اسمها بيري ديفيد، تأتي في برامج المسابقات للممثلين المشهورين ويعطونهم نقودًا، فيقولون لها في أحد الأسئلة: لماذا دموع العين مالحة؟ فماذا قالت؟: الدمع يأتي من المثانة!! وتقول أيضًا: كل ليلة أقرأ كتابًا، وجاء ذلك في مؤتمر صحافي، حتى لا أفكر! وأخرى تقول: بسبب خلاف مع إحدى صديقاتها، قالت: أنا عقدت معها اتفاقًا شفهيًا، والاتفاق الشفهي لا يساوي الورق الذي كتب عليه! أما كريستين كوهيرا، المغنية الكبيرة، قالت: أين سيكون مهرجان كان السينمائي هذا العام؟ لعل الرد يكون في الجنادرية هذا العام؟!!

نتحدث الآن عن جدلية الكتاب الرقمي، والكتاب الورقي، وهل يمكن للأول أن يلغي الثاني؟ عملوا إحصاء في أمريكا، وفي أستراليا، وفي اليابان، ووجدوا أن

الكتاب المطبوع ما زال يزداد بشكل كبير، الآن الناس في سفرهم ورحلاتهم يحملون الكتب معهم، المطابع الآن في أمريكا والناشرون، وكذا في أوروبا، وفي اليابان، يعيشون أزهى أوقاتهم، وقبل فترة مكتبة الكونجرس ومكتبة نيويورك وهما من أكبر مكتبات العالم، مكتبة نيويورك قالت: إنها وضعت مليوني عنوان في العام الماضي من الكتب المطبوعة؛ أي الورقية، ومليون وخمسمئة عنوان من الأشرطة والأقراص والميكروفيش، وغيرها من الأشياء، والمفروض أن تذهب الأمور نحو الأشياء التقنية، ولكن من الغريب أن الكتاب هو الذي ينتشر. جيكي رولن، صاحب هاري بوتر، عادة نحن نقول: إن الشيء الرقمي يصير مع الأطفال ومع الشباب أكثر من الذين تعودوا على الكتاب، الأطفال الصغار ينمون بأعداد كبيرة في المكتبات الكبرى في أمريكا وبريطانيا واستراليا والدول الناطقة بالإنجليزية من أجل الكتاب، حتى الآن هاري بوتر الـ cd لم يلاقِ رواجًا مثل الكتاب حتى إن الشركة التي كانت تنتج الـ cd في لندن أعلنت إفلاسها، بينما طابع الكتاب يعد الآن من أغنى الأغنياء في بريطانيا، جيكي رولن كانت فقيرة لا تملك ثروة وغيرها، ثم أصبحوا من أثرياء العالم.

بالنسبة لوقتي مع القراءة؛ فعلاً ليس هناك وقت، الوقت يعتب عليك، أنا لدي ارتباطات كثيرة مع الناس ومع الجمعيات، وغيرها؛ وليس لدي تقنيات قراءة، وأقرأ في أي مكان، أنا إنسان كائن قارئ، خلقت وأنا أقرأ! في إحدى المرات شكا مني مدير المدرسة، وتابعتني الوالدة؛ فوجدت تحت كتاب العلوم كتابًا لسوبرمان؛ فأنا أقرأ في أي مكان وفي أي زمان: في السيارة أقرأ، في القطار أقرأ، في الطائرة أقرأ، ما عدا مجلس الشورى، فليس لدي أن تكون الأجواء هادئة لكي أقرأ، أو أجلس على شاطئ البحر لكي أقرأ، ليس لدي مثل هذه الأشياء، كما أنني أقرأ أي شيء، كنت أنا وهشام في تونس، ودخلنا شقة في أثناء بحثنا على مكان لنجلس فيه، وقد رأيت فوق الثلاجة كتابًا، فأخذت الكتاب، وفي تونس يتحدثون الفرنسية، والكتاب باللغة الإنجليزية، فالكتاب تجده إذا أنت أحببت القراءة!

أيضًا الاستيقاظ المبكر، هذا أخذته عن والدتي، فكانت تقوم قبل أذان الفجر، وتصيح فينا جميعًا: لماذا لا تستيقظون لأداء الصلاة؟! هناك قبائل في أفريقيا اسمها قبائل الماسان، مشهورون بتعذيب الأطفال الصغار لكي يعدونهم للحروب، وما زالوا موجودين حتى الآن في جنوب نيجيريا، فمن أشيائهم يعلمون الأبناء ألا يناموا، فيقومون قبل الفجر دفعة واحدة.

فبالنسبة لي عندما أسمع صوت أمي، قبل ما تأتي إليّ، أقوم، وتقول الوالدة: إن هذا الوقت به بركة، فالمسافة بين صلاة الفجر حتى الساعة الثامنة صباحًا هذا وقت ثري جدًا للكتابة، وثري جدًا للقراءة، والمخ يكون في أنشط حالاته، ويكون مستعدًا لتقبل أي شيء، الوقت هذا مقتول، وقت الظهر، الذي يتناول الناس فيه طعام الغداء، أيضًا وقت مقتول، ويمكن أن يستفيد منه الشخص استفادة كبيرة.

التلفزيون قاتل الوقت الأول، وقد قامت الفتيات في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بعمل تجربة في الظهران، وأسموه معرض أسبوع البيت، صارت الأم تخيط، والعائلة بالكامل تتعاون، الأولاد ينتهون من واجباتهم ويبتكرون أشياء جديدة، الأجمل العلاقات تحسنت بين الأسرة، فالوقت يخلق أشياء كثيرة. فالوقت موجود، ولكن استغلال الوقت، فإذا تخلصت من التلفزيون، ولو يومًا واحدًا، بالقيام مبكر تنجز أشياء كثيرة.

بالنسبة إلى القراءة النوعية للكتاب، والثقافات المختلفة، أعرف أن كثيرًا منكم سوف يتعرّض للكتب العربية، ولكن هذه دعوة للاطلاع على الجانب الآخر، على الأدب الأجنبي، يوجد كتاب ألف ليلة وليلة، وكان هناك شخص أمريكي من أكبر جُمَّاع الكتب في العالم اسمه: هارولد باتيك، عمل قائمة لأعظم كتب الأدب في العالم، (١٠٠٠) كتاب كان على قائمتها كتاب ألف ليلة وليلة، يقول: إن هذا الكتاب جاء لإبهار العالم، وللحث على الخيال في العالم، وهو أول صنعة روائية ظهرت على وجه الأرض، وتكلم أن الكتاب أعجوبة في حد ذاته؛ لأن المؤلف غير معروف، الذي ألفه الثقافة العامة والحياة العامة، ألف ليلة وليلة ظل (٣٠٠) سنة

يكتب، ويضاف إليه، ففيه أجمل الشعر، وفيه أجمل النثر، وفيه أجمل القصص، وفيه أجمل الخيال، وعاشت أوروبا عالة في الخيال على ألف ليلة وليلة، وترجم ألف ليلة وليلة عن طريق المستشرقين، وشغف الناس بقراءة شهرزاد وشهر يار، ولم يقف هذا الانحسار والاندهاش حتى في الصنعة السينمائية، فقد تبنت وولت ديزني قصص سندباد من كتاب ألف ليلة وليلة، وتبنت علاء الدين والمصباح السحري من ألف ليلة وليلة، وتبنت علي بابا والأربعين حرامي، بل إن علي بابا كلمة شائعة في العالم بأنه اللص، فإذا ذكروا علي بابا؟ أي أن هذا سارق، وتعني في الهند اللص!!

وهناك كتاب آخر للكاتب إبراهيم الكوني[١]، وهو كاتب ليبي، هذا الرجل ليس صنعته فقط الكتابة، ولكنه صاحب لغة ساحرة عجيبة، يقابل شخصًا في بريطانيا أمريكيًا اسمه ادجر أليمبو، كاتب يكتب في الصحراء، ودائمًا في الصحراء، وكاتب مبدع، ولم يكتشف بما يجب.

الكتب التي أثرت عليّ من الكتب الأجنبية، كان كتاب نيتشه[٢] الألماني، عن السوبرمان، أثر في كياني الفكري لمدة طويلة، وقد وثقت بالآداب البافارية والألمانية، من أمثال: نيتشه، وكانط[٣] وغيرهما. أيضًا كان واحد منهم قادني إلى أشياء

(١) إبراهيم الكوني: روائي ليبي، ولد بغدامس عام ١٩٤٨م، يجيد تسع لغات وكتب ستين كتاباً حتى الآن، يقوم عمله الأدبي الروائي على عدد من العناصر المحدودة، على عالم الصحراء بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود. وتدور معظم رواياته على جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية وموجوداتها وعالمها المحكوم بالحتمية والقدر الذي لا يُردّ.

(٢) فريدريك فيلهيلم نيتشه: (١٨٤٤- ١٩٠٠م) فيلسوف وشاعر ألماني، كان من أبرز الممهدين لـ(علم النفس)، وكان عالم لغويات متميزًا. كتب نصوصًا وكتبًا نقدية حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً بلغة ألمانية بارعة. يعد من بين الفلاسفة الأكثر شيوعًا وتداولاً بين القراء. يعد نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة.

(٣) إيمانويل كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر من بروسيا ومدينة كونغسبرغ. كان آخر فيلسوف مؤثر في أوروبا الحديثة في التسلسل الكلاسيكي لنظرية المعرفة خلال عصر التنوير. أوجد كانط منظوراً واسعًا جديدًا في الفلسفة أثر في الفلسفة حتى القرن الواحد والعشرين. نشر أعمالا مهمةً عن نظرية المعرفة كذلك أعمالاً متعلقة بالدين والقانون والتاريخ. واحد من أكثر أعماله شهرة هو نقد العقل المجرد، الذي هو بحث واستقصاء عن محدوديات وبنية العقل نفسه.

جميلة، مثل: جوته كان يقول: إن أعظم من مشى على الأرض ﷺ، وكان يقول أيضًا في الديوان الشرقي، ونيتشه كان يبشر بالسوبرمان، ولم يؤثر عليّ فقط، لكنه أثر على كل الأمة الآرية والألمانية، بينما جوته كان رائعًا جدًا، وتعلق بالنبي ﷺ. ومن الكتب المهمة كتاب لكاتب اسمه فرديناند لويس، وهو مستشرق يهودي، وهذا المستشرق الغربي، هو أول من تحدث عن conflict of civilizations صراع الحضارات قبل صموئيل هنتنجتون، هو الذي تحدث عن صدام الحضارات، هذا كان يقول في محاضرة: يا جماعة يا مسيحيين أنتم ليس لديكم دين، ليس هناك ما يسمى الدين، بل هناك شيء اسمه Christianity للمسيحية، وهناك Christendom أي مملكة المسيحية، الدين الحقيقي هو دين الإسلام؛ لأن الإسلام فيه انتماء، وقال أيضًا شيئًا آخر، قال: إن الإسلام هو الدين الذي ازدهر، وسيزدهر، وسيبقى مزدهرًا إلى آخر يوم للبشر.

عملية تسويق الكتاب مشوِّقة؛ ففي النيويورك تايمز بكس، تقول: إن هذا رقم واحد، وغير ذلك، هناك شخص اسمه ستيفن كين وهو ماكينة تفريخ كتب، يكتب عن كتاب اسمه The shadow of wind كتاب لكاتب أسباني، ستيفن كين، الذي يخرج كل عام أكثر من ١٨ كتابًا، وجميع كتبه تأخذ مراتب متقدمة، فهناك يقولون: أحسن الكتب الخيالية، أحسن كتب في الطب، فإذا كنت لا تهوى العلوم فلن تقرأ، حتى لو كان أحسن كتاب في العلوم، وإذا كنت لا تهتم بالآداب فلن تهتم بأفضل كتاب في الأدب، كذلك إذا كنت تهتم بالقصص فستبحث عن الأشياء المتميزة في هذا المجال. هناك شيء في أوروبا وأمريكا يسمونه كتب العامة، ومن ضمنها كتاب خطير للعالم المعوق البريطاني، الذي يجلس على كرسي، ولا يتحدث، معاق تمامًا، كتلة لحم، هوكنز هذا كتب كتابًا دحض فيه أشياء كثيرة من نظريات آينشتين، وكتب كتابًا آخرًا عن الفلك، وهو كتاب علمي كُتبَ للعامة، وأصبح هذا الكتاب لمدة خمس سنوات على Sunday timeالكتاب الأكثر مبيعًا، فالأشياء التي يعلن عنها يعرفها الناس، والتي لم

يعلن عنها لا يدري عنها الناس. الإنترنت، إذا علمت الاسم تبحث عنه بسرعة، ولكن الإنترنت لا يعطيك المادة كاملة، لا ينشرون في الإنترنت الكتب كاملة.

أقول: إن الكتب عندما تفتح ولا تخاف منها، فيها أشياء كثيرة تدعو إلى الجادة الصحيحة. وإذا كان يقصد الأستاذ الذي سألني، الانطباع، أو التوجيه، أنا كنت أقرأ لبوذا، لكن التوجيه أيضًا مهم، وفي كثير من الأمور تحتاج إلى التوجيه إلى الكتب الصحيحة، وأيضًا أن تقرأ للأطراف الأخرى، بدلاً من أن تقرأ لطرف واحد، حتى لا تصبح منغلقًا، يجب أن تعرف الأشياء الأخرى، حتى لو ذهبت بعيدًا فسوف ترجع إلى الصحيح.

طبعًا القراءة تختلف من كتاب لكتاب، أنا أشجع القراءة من جميع النواحي، فالقراءة أفضل من عدم القراءة، فيجب أن تقرأ ومن خلال القراءة ستتفتح لك الأبواب والاتجاهات، وتتولد لديك القدرة على الاختيار. فعندما نتكلم عن الشيوعية، من الذي سيعطي ابنه كتابًا عن الشيوعية؟ ولكن لكي نعرف أن الشيوعية هذه خطأ أم صواب؟ يجب أن نقرأ عنها، وكيف نتمكن من محاربة الشيوعية، ونحن لا نعرف ما هي الشيوعية؟ فهناك أشياء يجب أن تزول، أفضل، أحسن، وقوموني إذا أخطأت، أنا أقول: لا يوجد شيء مخيف في القراءة، حتى الأشياء السيئة، فكيف نعرف أنه سيئ؟!

جاء الخميني وتوعد من يقرأ كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية"، أتحدى أي واحد يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه بفكرة واحدة، فهو كتاب قميء من بدايته إلى نهايته، أو هذا حيدر حيدر، كتاب سيئ جدًا، وعجزت أن أخرج منه بفكرة واحدة، لكن لو لم أقرأه لما عرفت أنه سيئ لهذا الحد؛ فالمحاذير، بألا تقرأ هذا، والنفس البشرية جبلت على الفضول. الإغريق لديهم ما يسمى bandora box، الإغريق يقولون: إن الله أول ما خلق زيوس في جبل أولمب، وكلهم رجال يستمتعون، ويقولون: إن الرجال كانوا سعداء جدًا، فجاء رب الآلهة عندهم وأعطاهم صندوق

اسمه بندورا بكس، وطلب من هؤلاء الرجال بألا يفتحوا هذا الصندوق، هذا دليل على الفضول في الغريزة البشرية. لو قال لهم افتحوه، لما فتحوه، ولكن فجأة غلبهم الفضول وفتحوا الصندوق، وخرجت الأدخنة من الصندوق، وهذه الأدخنة هي: دخان الكذب، ودخان النفاق، ودخان الشر، ثم تكون وصار على شكل امرأة. ومن ذاك الوقت عرفوا النساء، وظهرت هيرا، ومنذ ذلك الوقت الرجل لم يعد سعيداً. هذه أسطورة، ولكن العكس هو الصحيح، فإن النساء هم سر سعادة الأرض.

بالنسبة لتفاؤلي عن العودة إلى القراءة، أقول: كنت مع معالي وزير الإعلام، وتحدثت معه بصراحة، في خطط كبيرة لا تنتهي في فترة واحدة، واقترحت عليه تطبيق خيارين: الأول تطوير أدوات الملاحة، مثل ملاح السفينة، إذا طور أدوات الملاحة، وقد لا يصل إلى المرفأ، لكن مع تطوير هذه الأدوات قد تكون أسهل على القائد الذي بعدك في الوصول إلى المرفأ، وهناك مشاريع سهلة وسريعة، مثل مشاريع القراءة، والكتاب، وقد قدمت لمعاليه ملفًا كاملاً، وأرجو من هذا المكان أن يطبق على شقين: شق مهرجان قرائي لكل المملكة، ومهرجان تطوير المكتبات العامة؛ فالمكتبات العامة الآن مواقعها ممتازة، وأيضًا المباني، ولكنها مهملة، ومن ثم تحتاج إلى التطوير، كما ذكرت له، نحن لا نظر، وتعال معنا إلى المنطقة الشرقية، فلدينا هناك برنامج اسمه " أبناء وبنات المدن " ، وقاموا بتجارب عملية على الأرض، وليست أشياء نظرية، الشباب مشوا باتجاه آخر داخل الأحياء غير المحبوبة في مدينة الدمام، ويسمونها " الباطنية " بها كل أنواع الممارسات الخاطئة، وبها كل الأوصاف التي تتخيلونها، فبدؤوا بالفعل بالرسم على الجدران، ثم فكرنا في تنظيم مهرجان ومسابقة للقراءة، ونعطي جوائز على ذلك، نجحت المسابقة لدرجة أن خمسين عائلة دخلوا دفعة واحدة، وقد وزع عليهم الأبناء كتبًا بسيطة، وطلبوا منهم أن يقرؤوا هم وأبناؤهم، ومن يفزْ يعطَ جوائز، وأسهم رجال الأعمال في المشروع، وتطور الموضوع، وصاروا يطلبون المزيد من الكتب، وأصبحت تتوافر معلومات عن الحي،

والأطفال تقدموا بمشروع كامل، ونحن نعرضه على معالي الوزير، فهؤلاء الشباب هم القاطرة، أما الكبار، فهم الذين يقفون أمام القاطرة ويوجهونها كيف تسير يمينًا أو يسارًا، وينبهون يا شباب لا تأخذون هذا الطريق، لأن هذا الطريق نحن عدنا منه، فيجب الخروج من إطار القنوات الرسمية، والوزارات الرسمية.

وبالفعل إذا لم نقرأ ونقرأ ونقرأ لتحجرنا، وإذا تحجرنا صار هناك نوع من ضيق الأفق الشديد، القراءة تذيب التعصب، وترفع آفاق الفكر والتقبل، ومن ثم القارئون الحقيقيون، وليس القارئ المنهج، مثل الذي في المضمار، هم أكبر قدرة على الحوار، والأكثر قدرة على التواصل، وأكثر قدرة على صنع مجتمع أفضل.